صورة الضب في المثل العربي القديم
مقاربة في مرآة النقد البيئي

د. صابر محمد السيد جويلي
أستاذ النقد والبلاغة المساعد بقسم اللغة العربية
آداب الإسكندرية

صورة الضب في المثل العربي القديم مقاربة في مرآة النقد البيئي

صابر محمد السيد جويلي
قسم النقد والبلاغة- بقسم اللغة العربية- آداب الإسكندرية- مصر
البريد الإلكتروني: saber. geweely@alexu. edu. eg

الملخص :

يحاول هذا البحث دراسة مفردة بيئية ثقافية مهمة، هي "الضب"، وفق منهج وصفيٍّ تحليليّ، قوامه عينة عمدية، الظنُّ فيها أن تمثل مجتمع البحث تمثيلاً دقيقًا، والاستقراء شبه الكامل للأمثال العربية التي ذُكِر فيها الضب. من وجهة نظر "النقد البيئي"، ذلك الحقل المعرفي الجديد المهتم بدراسة العلاقة بين الأدب والبيئة، والذي ينبه المتخصصون فيه إليه إلى أن البيئة غير البشرية حاضرة لا كأداة تأطير وحسب، وإنما هي في الصميم من التاريخ الإنساني- الذي هو في النهاية جزء من التاريخ الطبيعي-ومن ثم من التكوين الثقافي البشري. وتألف البحث من ثلاثة مباحث، بين مقدمة وخاتمة: جاء المبحث الأول عن تجريد المصطلح، والثاني عن الوظائف الفنية للضب في السرد والشعر والبلاغة، وتحديدًا: الضب والتأطير الحكائي، ورمزية الضب، والضب في شعر المدح وشعر الهجاء، وفي التشبيه والكناية. أما المبحث الثالث ففي صور الضب وأدواره ونطاقات فعله الثقافي.

الكلمات المفتاحية: النقد البيئي- الضب - الصحراء- الأمثال-البلاغة- النقد الأدبي- التداولية - اوظائف الفنية للضب - رمزية الضب- الضب والسرد.

The image of the lizard in the old Arab proverb is an approach in the mirror of environmental criticism

Saber Mohamed El-Sayed Gouili
Department of Criticism and Rhetoric - Department of Arabic Language - Literatures of Alexandria – Egypt
Email: saber. geweely@alexu. edu. eg

Abstract :
This research attempts to study an important environmental and cultural object , which is "the Dabb", according to a descriptive-analytical approach, consisting of a deliberate sample, in which it is assumed to represent the field of the study accurately , and the almost complete extrapolation of the Arabic proverbs in which the Dabb was mentioned. From the point of view of "environmental criticism", That new field of knowledge interested in studying the relationship between literature and the environment, which specialists in it note that the non-human environment is present not only as a framing tool, but at the core of human history, which is in the end a part of natural history, and therefore of human cultural formation. The research consisted of three sections, between an introduction and a conclusion: the first topic came about the abstraction of the term, and the second was about the technical functions of the Dabb in narration, poetry and rhetoric, specifically: the Dabb and narrative framing, the symbolism of the Dabb, and the Dabb in praise poetry and satire poetry, and in simile and metonymy. The third is in the characteristics of the Dabb, its roles and the scope of its cultural action

Keywords: Environmental Criticism - Lizards - Desert - Proverbs - Rhetoric - Literary Criticism - Pragmatics - Artistic Functions Of The Lizard - Symbolism Of The Lizard - Lizards And Narration.

صورة الضب في المثل العربي القديم. مقاربة في مرآة النقد البيئي

المقدمة

"النقد البيئي" فرع حديث من النقد الثقافي(الدراسات الثقافية)، لم يقف عند حدود الدراسة البيئية العلمية المحضة للأرض وما عليها، وإنما امتد ليشمل دراسات متنوعة في الأدب والنقد واللغة، وعلم الاجتماع. ويسعى الدارسون في إطاره إلى الكشف عن موقف الإنسان من ظواهر البيئة وتجلياتها إيجابًا أو سلبًا. وتبلورت الدراسات في هذا المجال إلى ما يقترب من النظرية المتكاملة في نهايات القرن العشرين[١]، أي أنه من الآفاق البحثية الجديدة، التي تحاول الربط بين عالم الكلمة والعالم الطبيعي[٢]

ومن روافد النقد الثقافي التي تمخضت عنها الحركة النقدية في العالم في العقود الثلاثة الأخيرة. ومعلوم أن النقد الثقافي امتداد مرن/بديل للنقد الأدبي ما بعد الحداثي، يحاول أصحابه الخروج من التيه الذي انتهت بنا إليه البنيوية والتفكيكية. والبحوث العربية في مجال النقد البيئي حتى كتابة هذه السطور قليلة، بل نادرة. ولا يتناسب هذا على الإطلاق مع تراثنا الضخم الثري للغاية، الذي يمكن دراسته من هذه الزاوية مرارًا. ثم أنَّى يستقيم فهم الدارس للغة العربية ويكتمل، دون دراسة للبيئة التي ترعرعت فيها تلك اللغة أول أمرها؟!

---

(١) د. إيمان مطر السلطاني وآخَران: نسق النسوية البيئية في رواية حديقة حياة للطفية الدليمي، بحث بمجلة التربية الأساسية والعلوم الاجتماعية، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة، العراق، المجلد السادس، يناير ٢٠١٩م، ص٦٢٦، ويُنظر كذلك:

Lawrence Buell, The Future of Environmental Criticism: Environmental Crisis and Literary Imagination ,Blackwell puplishing,Malden,USA,2005,P1-27.

(2) Lawrence Buell, The Future of Environmental Criticism: Environmental Crisis and Literary Imagination ,Blackwell puplishing,Malden,USA,2005,P30.

مشكلة البحث وقضيته:

ندرة الدراسات العربية في النقد البيئي تحتم مزيدًا من البحوث في هذا المجال الواعد. ثم إن الضب مفردة بيئية تستحق الدراسة؛ فإذا كان الجمل، أيقونة الثقافة العربية[١]. ومتوقعٌ أن نجد له من أمثال العرب النصيب الأوفى؛ إذ هو سفينة الصحراء، وعماد حياة البدوي في القرون الخالية، وله من المكانتين المادية والمعنوية ما له. والحصان كالجمل؛ فالخيل حصون العرب، على صهواتها يحاربون، وبها إذا ما جدّ الجد يعتصمون. والأسد مهيب، على ندرته في الصحراء العربية قديمًا، وانقراضه منها الآن. أما الضب فمدهش حقًّا، تلك الكثرة الكاثرة من الأمثال عنه[٢]، وذلك الاهتمام كله به في كتب الأدب عامة، وكتب الأمثال خاصة، حتى إن الجاحظ يحدثنا عن أن يحيى ابن منصور الذهلي جمع أبوابًا في حزم الضب، وخُبثه، وتدبيره، مقارنًا ذلك بصنيع الحمقى من الرجال[٣]، والجاحظ نفسه يخصص للضب وما يتعلق به من أخبار وأشعار، قرابة مائة وعشرين صفحة كاملة من كتابه الحيوان! [٤]

ولعل الباحث المتسائل عن سر ذلك، يجد الإجابة، ويقع على ضالته حين يبحث عنها في الدوافع إلى نشأة علوم العربية في القرنين الأول والثاني الهجريين، تلك التي كان على رأسها خدمة النص المقدَّس: القرآن والسنة، بشرحهما، واستنباط الأحكام منهما انطلاقًا مما تتيحه لغة العرب، وما لها من إمكانات. ولم يكن بُدٌّ عند جمع نصوص هذه اللغة من الانطلاق إلى أعماق

(١) حسب تعبير أحد الدارسين الأجانب. يُنظر: روبرت إيروين: الجمل. التاريخ الطبيعي والثقافي، ترجمة أحمد محمود، سلسلة الحيوانات، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة"مشروع كلمة"، ط١ ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص٨٣، ثم عن دور الجمل في الثقافة واللغة والأدب عند العرب، وفي القرآن والحديث والتاريخ، ص٨٣-١١٦.

(٢) وجد الطالب عنه ستين مثلاً، دون احتساب الروايات المتنوعة لتلك الأمثال، وربما بلغت روايات المثل الواحد أربعًا أو خمسًا!

(٣) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٤٤.

(٤) السابق، جـ٦ ص٣٨-١٥٥.

البادية، حيث العروبة الخالصة من شوائب العجمة، وهو الأمر الذي قام به الرواة العلماء خير قيام[١]

وأعانتهم حركة في الاتجاه المعاكس، قام بها الأعراب الرواة، الذين قصدوا الحواضر الجديدة، الحواضن لتلك الحركة العلمية التدوينية النشطة[٢]؛ لما وجدوا من علماء اللغة ورواتها، ورواة الأدب المتخصصين من إقبال على كل ما يرتبط بالأطر الثقافية والاجتماعية والتاريخية لنصوص اللغة التي يجمعونها، ويدركون بوعي رائع أنها لا تنفك عن سياقاتها.

ورفد هذه الحركة العلمية، وأزكى جذوتها طائفتان مهمتان: الخلفاء ومن دونهم من كبار رجال الدولة، المتشبثين بهويتها العربية التي هي هويتهم، وهويتهم التي يحرصون على أن تظل هوية الدولة. والطائفة الأخرى المهمة، طائفة العجم، ممن دخلوا في دين الله أفواجًا، كما انضووا تحت راية العرب، فحرصوا على تعلم العربية أشد الحرص؛ إما إرضاءً لله، وإما إرضاءً للحاكم العربي. وهم–وإن اختلفت الدوافع–متفقون مع الطائفة الأولى في الأهداف[٣]

ههنا نجد إجابة التساؤل، ونعلم أن تلك العناية الواضحة بالضب، إن هي إلا عناية بمفردة من مفردات البيئة العربية الصحراوية التي نشأت لغة العرب في أحضانها. وهي وإن كانت مفردة صغيرة، فإنها عجيبة؛ لأنها غريبة على سكان الحواضر الجديدة. بل إن الرسول–صلى الله عليه وسلم–نفسه يعاف الضب؛ لأنه لم يعتد عليه في حاضرة صحراوية صغيرة نشأ فيها وأخرى هاجر إليها، هما مكة المكرمة والمدينة المنورة، فكيف بغيره من أهل الكوفة والبصرة وبغداد، على بعد مئات الأميال ، وبعد هذه السنين كلها؟!؛ ففي الصحيحين أن ابن عباس وخالد بن الوليد–رضي الله عنهما–دخلا مع النبي–

(١) عبد الحميد الشلقاني: رواية اللغة، دار المعارف بمصر، د. ت، ص٨١– ٨٤.

(٢) عن هذا يُنْظَر: عبد الحميد الشلقاني: رواية اللغة، دار المعارف بمصر، د. ت، ص٦٩– ٨١.

(٣) عن هذه الدوافع وغيرها، ينظر: عبد الحميد الشلقاني: رواية اللغة، دار المعارف بمصر، د. ت، ص٥٩، ٥٨.

صلى الله عليه وسلم–على زوجه وخالتهما ميمونة–رضي الله عنها– فقدمت إليهم ضبًّا محنوذًا، قَدِمَت به أختها حُفَيدة بنت الحارث من نجد، فأكل منه خالد، وعافه النبي صلى الله عليه وسلم(١)

ونشطت حركة التدوين في نهاية القرن الأول، وامتدت في القرن الثاني، وبلغت ذروتها في القرن الثالث الهجري، وخضعت المرويات في القرن الرابع لنوع من النقد فالرفض أحيانًا، قبل العودة في القرن الخامس إلى مرويات القدماء، في شكل من أشكال الحنين إلى الماضي في مواجهة أمواج العجمة المتلاطمة(٢) ، وربما يفسر هذا ما يلاحظه المتفحص لكتب الأدب عامة، والأمثال خاصة، من أفول للاهتمام بالضب والأمثال عنه، في خضم التغيرات الحضارية والثقافية المهمة التي شهدتها الدولة الإسلامية(٣)

وعاد الضب إلى صحرائه ثقافيًّا وماديًّا، حيث يصطاده من يصطاده في الربيع؛ هوايةً أو ليطعمه، ويستجيد أحاديثه كما يستجيد طعمه من يستجيد من أبناء الجزيرة العربية دون غيرهم، لكنه–على غير المتوقع–ما زال ماثلاً في ثقافتهم، وأدبهم، وباقيًا في مخيلتهم الجمعية إلى الآن، وهو في

(١) يُنْظَر: البخاري: صحيح البخاري، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر، الرياض، السعودية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، الأحاديث أرقام ٢٥٧٥، ٥٣٨٩، ٥٣٩١، ٥٤٠٠، ٥٤٠٢، ٥٥٣٧، ٧٣٥٨، ص٤٨٧، ١٠٦٦–١٠٦٩، ١٠٩١، ١٤٠٢، ومسلم: صحيح مسلم، اعتنى به صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، الأحاديث من ١٩٤٥إلى ١٩٤٨، ص٨٠٧، ٨٠٨، وأبو داود: سنن أبي داود، ضبط صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١ ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، الحديثان ٣٧٩٤، ٣٧٩٥ ص٧١٠، وابن ماجة: سنن ابن ماجة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط١ د. ت، الحديث رقم ٣٢٤١ ص٥٤٧، وبسط المسألة عند ابن العربي: عارضة الأحوذي، جـ٧ص٢١١، ٢١٢.

(٢) في أواخر القرن الخامس أوبدايات السادس يقول الميداني في مقدمة كتابه الشهير "مجمع الأمثال"، إنه تصفح أكثر من خمسين كتابًا في الأمثال؛ ليجعل خلاصتها في كتابه. ينظر: الميداني: مجمع الأمثال، ص٩.

(٣) عن تلك التغيرات الحضارية، وآثارها على اللغة والذوق، مشهور نص الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص٢٥.

رواية(التيه)الشهيرة لعبد الرحمن منيف رمز من رموز الأصالة، التي بها يقاوم مجلي السرحان تدخل الأمريكان في حياة العرب، حين يحمل ثلاثة ضباء في صندوق ليخيف بها أولئك الدخلاء الأغراب غير المعتادين على مفردات البادية العربية، وهو يهزج:

"وين تولون، أميركان يا زرق العيون

وين تولون

الشمس من فوق والعقرب من حدرية

والضب ينهش الخصيان"[١]

وغيرُ خافيةٍ تلك القرائن الثقافية المحتفة بالضب في النص القصير السابق: "زرق العيون" وهي كناية عربية أصيلة عن العدو اللدود، و"الشمس" العربية الحارقة من فوق، و"العقرب" و"الضب"على سطح الأرض العربية قرينان كما كانا دائمًا في مخيلة العرب وثقافتهم[٢]. ووصف الضب بأنه ينهش الخصيان له جذوره الضاربة في تراثنا أيضًا؛ إذ كان يُقال إن الضب إذا مر من بين رجلي رجل عجز بعدها عن مباشرة النساء! [٣]

ونجحت خطة مجلي السرحان، وخاف الأمريكي مدلتون حين فتح الصندوق، واندفعت منه الضباب، فضج العمال بالضحك سخرية منه[٤]، وكأنه انتصار رمزي بسيط للثقافة العربية الأصيلة على الثقافة الدخيلة، لكن سرعان ما خبت جذوة هذا النصر، عندما احتوى مدلتون الموقف بسرعة، وتظاهر بأنه

(١) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٥٠٢.

(٢) عن هذا الاقتران، يُنظَر: الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٥٣، ٥٨، ٥٩، واليوسي: زهر الأكم في الأمثال والحكم، جـ٢ ص١٨٧، ١٠٥، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص٧٠٥، ٧١١

(٣) الدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ص٧١٢، والقزويني: عجائب المخلوقات، ص٣٧٢والعمري: مسالك الأبصار، جـ٢٠ص١٣٢.

(٤) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٥٠٤.

لم يُخدع، وتقدم إلى الصندوق مرة أخرى وهزَّه، فلما اضطربت الضباء داخله، صاح بصوت قوي ومرح في آن واحد طالبًا من مجلي أن يسترد هديته[١]

وبدا الضب مرة أخرى في إحدى حلقات مسلسل"طاش ما طاش" التلفازي السعودي المشهور في العقد الأخير من القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين[٢] . ويوافق الباحث إدوارد سعيد الرأي في أن بعض اللغات–مثل العربية والصينية–"فرض علاقة بالغة الخصوصية بين الخطاب الفكري الحديث والتقاليد القديمة التي تتميز في العادة بثرائها الشديد"[٣] الشديد"[٣]

والأمر لا يقف عند الكثرة العددية؛ إذ يتخطى هذا إلى نصيب واضح من التكوين الفكري والوجداني للعربي في تراثنا. يعني هذا أن "الضب" مهم، وأن دراسته تقود إلى تلمس خصائص بارزة في الثقافة العربية، وفي تكوين العقلية العربية.

منهج البحث:

يحاول هذا البحث دراسة مفردة بيئية ثقافية مهمة، هي"الضب"، من وجهة نظر النقد البيئي، وفق منهج وصفيٍّ تحليليّ، قوامه عينة عمدية، الظنُّ فيها أن تمثل مجتمع البحث تمثيلاً دقيقًا، والاستقراء شبه الكامل للأمثال العربية التي ذُكِر فيها الضب[٤]

(١) السابق، ص٥٠٤.

(٢) تركي المغامس وفوز الظاهر: مقال"وللناس في ما يعشقون. . . متعة أكل الضبان!، على الموقع الإلكتروني لجريدة الرأي الكويتية، يوم ٤ مارس ٢٠٠٨م.

(٣) إدوارد سعيد: المثقف والسلطة، ص ٦٤.

(٤) يُقْصَد بالعينة العمدية هنا، تلك المجموعة الفرعية من عناصر مجتمع البحث التي تُختار بعناية لتمثل المجتمع تمثيلاً دقيقًا قدر الإمكان. يُنظر: د. درّ محمد: أهم مناهج وعينات وأدوات البحث العلمي، مجلة الحكمة للدراسات التربوية والنفسية، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، العدد التاسع، يناير ٢٠١٧م، ص٣١٣، ٣١٥.

حدود البحث:

"الضب في الأمثال العربية من وجهة نظر النقد البيئي"هذه هي الحدود الموضوعية للبحث الراهن. وقد أمعن الباحث في النظر في أثنائه في خمسة عشر كتابًا خالصة للأمثال، بخلاف ما جاء في غيرها من كتب الأدب وغيره، مما هو مثبت في قائمة المصادر والمراجع. وغربل ما فيها من أمثال، فعثر على ستين مثلاً عن الضب، هي مدار العمل في هذا البحث.

والبحث ضمن نطاق"النقد البيئي"، والمقصود به هنا تحديدًا ذلك الحقل المعرفي الجديد المخصص لدراسة العلاقة بين الأدب والبيئة، والذي ينبه الداعون إليه إلى أن البيئة غير البشرية حاضرة لا كأداة تأطير وحسب، وإنما هي في الصميم من التاريخ الإنساني–الذي هو في النهاية جزء من التاريخ الطبيعي–ومن ثم من التكوين الثقافي البشري(١)

ثم إن البحث غير محدد زمانًا ولا مكانًا؛ فمجاله الأوسع الثقافة العربية بشكل عام، وإن كان من المتوقع أن يخفت الصوت الثقافي للضب بعد القرن الخامس الهجري، وينزوي في حدود الجزيرة العربية.

وللأمثال في حياة كل أمة آثار عميقة في وجدانها الجمعي وثقافتها. وما زالت الأمثال العربية كنزًا ثقافيًّا مذخورًا، ينتظر من ينقب في طبقاته أكثر؛ ليستخرج كل فريد ثمين؛ وليفهم بشكل أعمق واحدًا من أهم جذور تكويننا العقلي والثقافي. كيف لا، وهي "وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وحلي المعاني، والتي تخيرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها في كل زمان وعلى كل لسان. فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عمَّ عمومها. حتى قيل: أَسْيَرُ من مَثَل"(٢)

كذا قال ابن عبد ربه، وأجاد؛ فالأمثال خير تلخيص لحياة شعب من الشعوب، أوطبقة من طبقات ذلك الشعب، أو جيل من أجياله. ومنها نقف

(١) عن تعريفات النقد البيئي، وأسمائه المتنوعة، وتاريخ موجاته الأربع في الغرب، يُنْظَر: نجاح الجبيلي: النقد البيئي. مقدمات. مقاربات، تطبيقات، دار شهريار، البصرة، العراق، ط١ ٢٠٢١م، ص٩–٢١.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ٣ ص٣.

على رؤية ذلك الشعب للحياة والوجود، وخلاصة التجربة ومحصول الخبرة عنده. وهي أنضج أشكال التعبير عن الحكمة الموروثة، وأبقاها على مر الزمن. ثم يكتسب المثل القديم بمرور الزمن وتراكم الخبرات المماثلة طابعًا تعليميًّا، يتيح للأجيال المتتالية أن تستخلص منه ما يجنبها الوقوع في الأخطاء نفسها، التي تمخض عنها المثل، غير أن هذه الإفادة ليست حتمية، وإنما محتملة منطقيًّا وواقعيًّا[١]. إنها "الأنغام اللغوية الصغيرة للشعوب، ينعكس فيها "الشعور" و"التفكير"، وعادات الأفراد وتقاليدهم على وجه العموم" كما يقول زلهايم[٢]

ومن السمات التي حددها الباحثون للمثل، ما يأتي:

١-يمتاز بالإيجاز وجمال البلاغة(من تشبيه وكناية وإيقاع ، والتزام بالتقفية في بعض الأحيان). وإذا كان قد نشأ في الأصل على لسان مبدعٍ فردٍ مجهول، فلا شك في أنه تعرض للتحوير والتعديل والصقل والتهذيب، حتى استقر في شكل لغوي ثابت، يردده الناس كلما صادفوا موقفًا ينطبق عليه المثل، ويصور ما ينطوي عليه من مفارقات الحياة.

٢-ليست الفلسفة في الأمثال عميقة، وهي بحيث يدركها الشعب بأسره، ويرددها، وتنتقل عبر الأجيال. ويسهل انتقالها كذلك إلى شعوب أخرى في العصر نفسه أو عصور تالية.

٣-ومن سمات المثل أنه يصيب كبد الحقيقة، وينأى عن الوهم والخيال[٣]

ولا يوافقهم الباحث على هذه السمة الأخيرة موافقة كاملة؛ فبين أيدينا من أمثال العرب خاصة-والأمم عامة-ما له صورة قصصية خيالية واضحة، اللهم إن كان المقصود هنا التأكيد على واقعية المثل من حيث الخطاب والمضمون الفكري.

(١) د. عبد الغفار مكاوي: جذور الاستبداد. قراءة في أدب قديم، ص٢٧٥، ٢٧٦.

(٢) رودلف زلهايم: الأمثال العربية القديمة. مع اعتناء خاص بكتاب الأمثال لأبي عبيد، ترجمةد. رمضان عبد التواب، دار الأمانة ومكتبة الرسالة، ط١ ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص١٣.

(٣) د. عبد الغفار مكاوي: جذور الاستبداد. قراءة في أدب قديم، ص٢٧٦، ٢٧٧.

٤-من شأنها ألا تُغيَّر، وأن تظل طويلاً بصورتها الأصلية.
٥-كثرة دورانها على الألسنة[١]

يقول البكري: "والأمثال مبنية على الإيجاز والاختصار، والحذف والاقتصار"[٢]. وسماتٌ أخرى للمثل، يحددها فريدريك زايلر، في كتابه "علم الامثال الألماني"، هي أنه: ذو طابع شعبي، وذو طابع تعليمي، وله شكل أدبي مكتمل، وأنه يسمو عن الكلام المألوف، على الرغم من أنه يعيش في أفواه الشعب[٣]

تساؤلات البحث:

ومن أشهر التساؤلات التي يسعى النقد الثقافي-بوجه عام-للإجابة عنها، ما يأتي:

١-كيف يعمل النص ضمن سلسلة، تضم معه نصوصًا ثقافية أخرى، تنتمي للفترة التاريخية ذاتها؟
٢-ما الذي يضيفه إلى تصورنا (المؤقت) للتجربة الإنسانية في ذلك الزمان وذلك المكان؟
٣-ما وسائل تشكل الذات المفردة في إطار المؤسسة الثقافية، وكيف أسهمت تلك الذات في تشكيل تلك المؤسسة؟
٤-كيف نتوسل بالعمل الأدبي إلى رسم التفاعل بين الخطابين التقليدي ونقيضه، داخل الثقافة المنتجة للعمل الأدبي؟[٤]

ولعله من الممكن-في ضوئها-صياغة تساؤلات هذا البحث على نحو مشابه، بوضع كلمة "الضب" مكان كلمة "الذات"، وإحلال كلمة "المثَل "محل كلمتي

(١) ينظر: د. شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ص٤٠٤.
(٢) البكري: فصل المقال، ص٥١.
(٣) نقلاً عن: د. نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د. ت، ص ١٤٠.
(٤) د. خالد سليمان: د. عبد الله الغذامي من "الخطيئة والتكفير"إلى "النقد الثقافي". دراسة انتقائية، ضمن كتاب "الغذامي الناقد"، ص ١٤٩.

"النص" و "العمل الأدبي"، ووضع "الثقافة العربية الإسلامية" موضع "المؤسسة الثقافية" و"الثقافة المنتجة".

الدراسات السابقة

لم يسبق أحد–فيما يعلم الباحث–إلى دراسة عن الضب من وجهة نظر النقد البيئي، بل من وجهة نظر نقدية من الأساس، ولا تطرق إلى الأمثال العربية التراثية من هذه الزاوية ولا تلك(لا الضب ولا النقد البيئي). ثم إن المؤلفات العربية نادرةٌ ندرةً واضحةً في النقد البيئي بوجه عام، حتى يمكن عدها على أصابع اليد الواحدة، ومنها:

١- **د. إيمان مطر السلطاني وآخَران: "نسق النسوية البيئية في رواية حديقة حياة للطفية الدليمي"**، بحث بمجلة التربية الأساسية والعلوم الاجتماعية، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة، العراق، المجلد السادس، يناير ٢٠١٩م. وواضح–حتى من اسمه–أنه في مجال الدراسات النسوية خاصةً، أي أنه يستكشف اللغة والأدب من منظور وعي الجنوسة، متخذًا من النقد البيئي منطلقًا لهدفه ذاك لا أكثر. وبهذا يفارق البحث الراهن شكلاً ومضمونًا وهدفًا.

٢- **نجاح الجبيلي(معد ومترجم): "النقد البيئي. مقدمات. مقاربات، تطبيقات"**، دار شهريار، البصرة، العراق، ط١ ٢٠٢١م، وهو ترجمة لمقالات أجنبية في ثلاثمائة وثلاثين صفحة تقريبًا، وقد أفاد الباحث منه في فهم الإطار النظري للنقد البيئي، وتاريخه، واتجاهاته، وبعض أدواته التطبيقية، على الرغم من افتقار الكتاب إلى العمق والرؤية الموحدة للعناصر، وقلة التطبيق على الثقافة العربية، شأن الكتابات الرائدة في الدراسات الحديثة، عند النقل عن اللغات الأجنبية.

المبحث الأول: تجريد المصطلح

نحن بصدد مصطلحين رئيسين في هذا البحث: "الضب"، و"النقد البيئي". وتجريدهما مما قد يلتبس بهما من مفاهيم ومصطلحات مهمٌ في سبيل الخروج بنتائج تتسم بالدقة والموضوعية.

أما النقد البيئي فقد مر بعض الكلام عنه، ويمكن أن يُضاف الآتي:

في ظل الأزمات البيئية المتتالية التي يشهدها العالم، ظهر هذا المنهج النقدي الجديد بأسماء شتى: النقد البيئي، أو النقد الأخضر، أو الدراسات الخُضر، أو الشعريات البيئية. وكانت بواكير تجسداته في الولايات المتحدة وبريطانيا في ستينيات القرن العشرين، مع نشر كتاب(ربيع صامت)لراشيل كارلسون–الذي كانت فيه الإشارة الأولى لهذا المذهب–ثم خمدت حركة الدراسة في هذا الاتجاه إلى حد بعيد؛ مع غلبة البنيوية والتفكيكية، اللتين نفى نقادهما وجود ما يستحق الدراسة خارج عالم النص اللغوي، قائلين إن الحقيقة مؤسسة داخل اللغة المتجسدة في النص اللغوي لا غير.

وفي تسعينيات القرن العشرين، أطل النقد البيئي برأسه من جديد، وعاد بقوة لينتظم في أربع موجات كما يقول المؤرخون لهذه الظاهرة:

الموجة الأولى: بدأت عام ١٩٩٢م، مع تأسيس جمعية دراسة الأدب والبيئة بالولايات المتحدة، وفي العام التالي ظهرت دوريتها(آيسل=الدراسة متعددة الاختصاصات للأدب والبيئة). وبعد سنوات–عام ١٩٩٨م–أُسست في بريطانيا منظمة مشابهة، ثم دورية للآداب الخضر، عام ٢٠٠٠م. وأهم ما أنجزته تلك الموجة الأولى، أن أحصت في قوائم أهم ما يمكن دراسته من الأعمال الأدبية في نطاق النقد البيئي، أو ما يسمونه"التأهيل الضروري للمرجع".

الموجة الثانية: المسماة بالإيكولوجيا العميقة والاجتماعية، مع كتاب لورانس كوب: دليل القارئ إلى الدراسات الخُضر، الذي صدر عام ٢٠٠٠م. وتداخلت معها جهود النسويين البيئيين، ودراسات المهتمين بنقد ما بعد

الكولونيالية، فتعمقت الدراسة بوضوح، وازدادت ثراء بمناقشة موضوعات أشد تنوعًا.

الموجة الثالثة: السياسات البيئية العالمية، بعد صدور كتاب أورسولا هايس: حس المكان وحس الكوكب. الخيال البيئي العالمي، عام ٢٠٠٨م. واقترح المنخرطون في تلك الموجة"مواطنة عالمية ذات نزعة بيئية"، وأفضت دعواتهم إلى"الإعلان العالمي لحقوق الأم الأرض"، و"مؤتمر شعوب الأرض عن التغيير المناخي"، الذي عُقد في كوتشابامبا في بوليفيا، عام ٢٠١٠م.

الموجة الرابعة: أو موجة النقد البيئي المادي. ويذهب متبنوا أفكارها إلى أن ذواتنا المادية لا يمكن أن تنفصل عن الشبكات الاقتصادية والاقتصادية والسياسية والثقافية والعلمية والمادية المحيطة(١)

وأما الضب فزاحف صحراوي، ينتمي إلى عائلة السحاليAgamidae، ويسمونه أحيانًا"السحلية شوكية الذيل"**Spiny-tailed lizard**؛ بسبب ذيله الغليظ، المسلح بأشواك، الذي يدافع به عن نفسه، بأن يخفي رأسه، وبعض جسده في جحره، ويلوح بذيله بعنف يمينًا وشمالاً؛ ليلطم بأشواكه وجه عدوه. والضب البالغ عاشب(٢) . يقول ابن منظور: "الضب دُويبة من الحشرات معروف، وهو يشبه الورل، والجمع أَضُبّ، مثل كفّ وأَكُفّ، وضباب وضُبَّان.. . وذَنَبُ الضب ذو عُقَد، وأطولُه يكون قدر شِبْر. والعرب تستخبث الوَرَل وتستقذره، ولا تأكله، وأما الضب فإنهم يحرصون على صيده وأكله. والضب أحرشُ الذنب، خشنُه، مُفَقَّرُه، ولونه إلى الصُّحْمَة، وهي غُبْرَة مُشْرَبَة

(١) يُنْظَر: نجاح الجبيلي: النقد البيئي، ص٥-٢٠.

(٢) جون ريفيرتي John P. Rafferty : مقال عن الضب بدائرة المعارف البريطانية، في https: //www. britannica. com/animal/spiny-tailed-lizard.

وتركي المغامس وفوز الظاهر: مقال"للناس في ما يعشقون. . . متعة أكل الضبان!، على الموقع الإلكتروني لجريدة الرأي الكويتية، يوم ٤ مارس ٢٠٠٨م.

سوادًا، وإذا سَمِنَ اصفرَّ صدره، ولا يأكل إلا الجنادبَ والدَّبَى والعُشْب، ولا يأكل الهاوام"[١]

ويُصاد الضب لأهداف، منها أكل لحمه لعدم غيره، أواستطرافًا وتجريبًا لمأكول غير معتاد، أو يصيدونه لبيعه، أولمجرد ممارسة هواية الصيد[٢]. ولصيده طرق متنوعة كذلك، بعضها قديم، وبعضها مستحدث[٣] (٣٤)، أشهرها الحرش، والحَرْشُ أن يأتي الصياد قفا جحر الضب، فيقعقع بعصاه، ويدخلها في جحر الضب، فإذا سمع الصوت حسبه دابة تريد أن تدخل عليه، فأخرج ذيله ليضربها به، فيأخذ الصياد بذيل الضب، و"يضب" عليه، أي يقبض عليه قبضًا شديدًا ولا يفلته حتى يخرجه من جحره[٤]

أو أن يُؤتى إلى باب جحر الضب بأسودَ من الحيات فيحرَّك عند فم الجحر، فإذا سمع الضب حسَّ الأسود خرج إليه ليقاتله فيُصَاد[٥]

وهناك خلط قديم ذائع بين الضب وكائن آخر، هو الورل، الذي يُقال في تشبيه الظالم به إنه"أظلم من ورل"[٦] ؛ ومرد هذا الخلط بينهما أن الورل يشبه الضب في الظاهر[٧]، مع أن بينهما فروقًا عدة، منها أن الورل أكبر[٨]، وأنه قد يفترسُ الضبَّ[٩]. وبراثن الورل حادة لا يحفر بها، وإنما يُبقي عليها؛ لأنه يعلم أنها سلاحه الذي يمزق به فرائسه، ويدافع عن نفسه، وهو آكل للحيوان،

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة(ضبب) .

(٢) ينظر: تركي المغامس وفوز الظاهر: مقال"وللناس في ما يعشقون. . . متعة أكل الضبان!، على الموقع الإلكتروني لجريدة الرأي الكويتية، يوم ٤ مارس ٢٠٠٨م.

(٣) عن أهمها ينظر: تركي المغامس وفوز الظاهر: مقال"وللناس في ما يعشقون. . . متعة أكل الضبان!، على الموقع الإلكتروني لجريدة الرأي الكويتية، يوم ٤ مارس ٢٠٠٨م.

(٤) خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ ص٩٥.

(٥) المفضل بن سلمة: الفاخر، ص٢٤٢.

(٦) أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ٢ ص٢٧رقم ١٢٦٨.

(٧) الدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص ٧٠٤.

(٨) الجاحظ: الحيوان، جـ٣ الحاشية الخامسة ص٤٠١.

(٩) السابق، جـ٦ الحاشية السابعة ص٤٢.

بينما الضب كليل البراثن، ونباتي. وبينهما فروقٌ في البيئة؛ فالضب صحراوي جدًّا لا يقرب الماء، بينما الورل ملازم لمجاري الأنهار ومجامع المياه، ويحب الأرض المكسوة بالأشجار أو الحشائش(١)

ومن الفروق الثقافية المهمة جدًّا بينهما أيضًا، أن الأعراب لا يصيدون الورل من أول الليل؛ لأنهم يعتقدون أنه من مطايا الجن، وأن أحدهم إن صاده أو قتله في أول الليل لم يأمن على فحل إبله من إيذاء الجن، من باب المعاملة بالمثل! (٢). وليس الليل من أوقات نشاط هذه العائلة من الزواحف؛ فهي نهارية بصرامة وبامتياز(٣). ويبدو أن رؤية الأعراب لها في غير أوقاتها المعتادة، هي التي أوحت إليهم أن لهذا الظهور غير المعتاد تعلق بالجان

(١) ينظر: الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٤٦، وكذلك http: //animalia. bio/nile-monitor.

(٢) ينظر في هذا: الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٤٦، ٤٧.

(3) Thomas M. Wilms and Wolfgang Böhme: p436.

المبحث الثاني: توظيف الضب فنيًّا

أولاً الضب والتأطير الحكائي:

لما كان مرور الزمن يعني تراكم التجارب، وعلو السن يشير غالبًا إلى الحكمة المستفادة من تلك التجارب، وكان الضب مما يطول عمره جدًّا، اقترن في المخيلة العربية بالحكمة، فجعلت الحيوانات تثق في رأيه، وتعرف له رجاحة العقل، فترتضيه حكمًا، يقضي بينها في بنية قصصية مأثورة، ينقلها لنا ابن عبد ربه، على الهيئة الآتية:

"خطب النعمان بن بشير على منبر الكوفة، فقال: يا أهل الكوفة، إني وجدتُ مثلي ومثلكم كالضبع والثعلب أتيا الضبَّ في جحره، فقالا: يا أبا حِسْل، قال: أجبتكما، قالا: جئناك نختصم. قال: في بيته يُؤتى الحَكَمُ. قالت الضبع: فتحتُ عيبتي، قال: فِعْلَ النساء فعلتِ. قالت: فلقطتُ تمرة. قال: حُلوًا جنيتِ. قالت: فاختطفها ثُعالة. قال: نفسه بغى- ثعالة اسم الثعلب، الذكر والأنثى- قالت: فلطمتُه لطمة. قال: حقًّا قضيتِ. قالت: فلطمني أخرى. قال: كان حرًّا فانتصر. قالت: فاحكم الآن بيننا. قال: حدِّث امرأةً حديثين فإن لم تفهم فأربعة"(١)

ومن عادة العرب أن تجعل على ألسنة الحيوان عبارات تضمنها آراءها؛ لتنقلها عبر الأجيال بسهولة، كما تفعل في الشعر(٢). وواضح من هذه الرواية

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ٣ ص٧، ومؤرج السدوسي: كتاب الأمثال، تحقيق د. رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١ ١٩٨٣م، ص٤٧، ٤٨، والمفضل بن سلمة: الفاخر، ص٧٦، وأبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ١ ص٢٩٧، جـ٢ ص٨٧، ببعض الاختلاف في عدد الأمثال وصيغتها. وينظر أيضًا: الأصمعي: كتاب الأمثال، ص٧٨، وأبو عبيد القاسم بن سلام: كتاب الأمثال، ص٥٤، والقالي: الأمالي، ص١٩٤، واليوسي: زهر الأكم، جـ٢ ص١٠٠، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٢ ص٩٩٤، ٩٩٥، ١٠٠١ ، ١٦٩٨ ، ١٨٠٤، وبعض أمثال هذه القصة في: الواحدي: الوسيط في الأمثال، ص٩٨، والبكري: فصل المقال، ص٥٠، ٥١، واليوسي: زهر الأكم، جـ٢ ص١١٢، ١٢٦، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٢ص١٠٢٢ رقم ٤٥٨٦، ص١٠٣٦ رقم ٤٦٣٣.

(٢) يُنظر مثلاً: ابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ٢ ص٩٨.

أن البنية الحكائية البسيطة التي حاول ناسجها جمع عدد من الأمثال معًا في إطار يسهل معه حفظها وتداولها، واضح من هذه الرواية أن تلك البنية قديمة، حتى إن الصحابي النعمان–رضي الله عنه–يرويها على منبر الكوفة في القرن الهجري الأول، والنعمان قُتل سنة خمس وستين هجرية[١]، وكان قبلها واليًا على الكوفة قبل موت معاوية–رضي الله عنه–سنة ستين، ولاه معاوية عليها[٢]، وفي إحدى الروايات أن خطبة النعمان هذه في أهل الكوفة كانت عندما مات معاوية، أي سنة ستين تحديدًا[٣]. فلعل هذه القصة والأمثال التي فيها أقدم المروي من أحاديث الضب وأمثاله، يؤكد هذا أننا لانجد غيرها عنه في أقدم ما وصل إلينا من كتب الأمثال، أعني "كتاب الأمثال" لأبي فيد مؤرج السدوسي، المتوفى في نهاية القرن الثاني[٤]، ولم يُعنَ مؤلفو كتب الأمثال العربية بترتيبها تاريخيًّا، وتمييز جاهليها من إسلاميها، بل سردها معظمهم مرتبة حسب حروف العربية، لكن ملابسات المثل، والقصة المروية معه قد تشير إلى زمنه[٥]

وهذا المثل جاهلي؛ فهو يدور في فلك مكانة الضب بين الحيوانات، وأنه الحكم بينها منذ القدم؛ إذ "كان حَكَم الدواب والسباع في الجاهلية"[٦] ، وهي تأتيه في بيته؛ لأنه "في بيته يؤتى الحكم"، وتكنيه بأبي الحسل، وفي التكنية تعظيم وتبجيل، ثم إن تلك الحيوانات تقنع بتلك الجُمل البرقية القصيرة التي يجعل فيها حُكمه وحكمته!

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١ ص٦٧٨، وابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ١٤١٥هـ، جـ٦٢ ص ١٢٢، ١٢٣.

(٢) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، جـ٦٢ ص١٢٢، ١٢٣.

(٣) أبو عبيد القاسم بن سلام: كتاب الأمثال، ص٥٤.

(٤) يُنظر: مؤرج السدوسي: كتاب الأمثال، ص ٤٧، ٤٨.

(٥) د. شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ص٤٠٥.

(٦) أبو عبيد القاسم بن سلام: كتاب الأمثال، ص٥٤.

والحكاية رمزية خيالية"مما يتمثل به العرب على سبيل المَزْح ولا أصل لـه"[١] ، وإلا، فأيـة ضـبع–وفـي روايـة أرنـب–تلـك التـي تجنـي التمـر أو تحفظه في عيبتها لتأكله؟وأي ثعلب ذلك الذي ينازعها أكل التمرة، وهما من اللواحم؟! إنها حكاية فيها من سمات العصر الجاهلي رمزيته وبساطته معًا. وفيها منه أيضًا جمله القصيرة الموسومة بسيما الشفاهية؛ ليسهل حفظها، وتناقلها من قبيلة إلى قبيلة، ومن جيل إلى جيل. والمشتغلون بدراسة الثقافات الشفهية وآدابها يحددون سمات للأدب الشفهي ، من أهمها: الأسلوب التجميعى فى مقابل التحليلى، والقرب من عالم الحياة الإنسانية، ولهجة المخاصمة، والميل إلى المشاركة الوجدانية فى مقابل الحياد الموضوعى' والموقفية أكثر من التجريدية[٢]

وهذه السمات كلها ماثلة في النص الذي بين أيدينا، فهو–في ضوء تحليل أسلوبه–نص قديم، يرجع إلى فترة ما قبل التدوين؛ "ففى الثقافة الشفاهية الأولية عليك–لكى تحل مشكلة الاحتفاظ بالتفكير المعبَّر عنه لفظيًا واستعادته على نحو فعال–أن تقوم بعملية التفكير نفسها داخل أنماط حافزة للتذكر، صيغت بصورة قابلة للتكرار الشفاهي، وينبغى أن يأتى تفكيرك إلى الوجود إما فى أنماط ثقيلة الإيقاع متوازنة، أو فى جمل متكررة متعارضة؛ أو فى كلمات متجانسة الحروف الأولى أو مسجوعة، أو فى عبارات وصفية أو أخرى قائمة على الصيغة، أو فى وحدات موضوعية ثابتة"[٣] ، ثم إن صائغ الحكاية لم

(١) المفضل بن سلمة: الفاخر، ص٧٦.

(٢) عن هذه السمات، وغيرها، يُنْظَر: والتر. ج. أونج: الشفاهية والكتابية، ترجمة د. حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة ١٨٢، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت، شعبان ١٤١٤هـ– فبراير ١٩٩٤م، ص٩٩–١١٥، ولمزيد عن تلك السمات يُنظر:

John H. Hayes: An Introduction to Old Testament Study, SCM Press LTD, U. S. A, 1979, p. 66, 67, 68.

(٣) والتر ج. أونج: الشفاهية والكتابية، ص٩٤، ويُنظر فى هذا الصدد كذلك :

W. G. E. Watson: Classical Hebrew Poetry, p. 66, 67, 68.

يشغل نفسه بأن يسمع الضب دفاع الثعلب عن نفسه، واكتفى بإرضاء الطرفين بأحكامه الموجزة.

ويرجح الباحث شيئًا آخر في هذه المسألة أيضًا ، هو"التصحيف"، الذي انتاب كلمة في القصة، فحول مجراها؛ ففي روايةٍ أولى لهذه القصة، أوردها صاحب أقدم كتاب في الأمثال وصل إلينا–وهو مؤرج السدوسي في القرن الثاني–وجاء بها في الصفحة نفسها، قبل هذه الرواية، وفيها أن الضبع التقطتْ "خِشْفًا"، فطلبته أمه الظبية، فوجدته مع الضبع، فقالت الظبية ولدي، فاختصما إلى الضب أبي الحسيل–وكان حكم السباع–فقالت كل واحدة منهما ولدي. . . إلخ[١]

و"الخِشْف" ابن الظبية، بينما "الحَشَف" التمر الرديء، وسهلٌ تصحيف الكلمة الأولى إلى الثانية، في تلك الفترة المبكرة من تاريخ التدوين عند العرب. ويبدو أن مؤرجًا السدوسي جمع مادة كتابه من تأليف صحف لمن سبقوه من التأليف في الأمثال، من أعلام القرن الهجري الأول، كصُحار العبدي، وعُبيد بن شَرْيَة الجرهمي، اللذين عاصرا معاوية بن أبي سفيان–رضي الله عنه–[٢]

وعَلاقَة بن كُرْشُم، الذي عاصر ابنه يزيد بن معاوية، وألف كتابًا في الأمثال نحو خمسين ورقة رآه النديم صاحب الفهرست[٣]

ثم قرأها مَنْ صَحَّفَهَا حشفًا، وجعل مكان الحشف كلمة أكثر شيوعًا منه، هي "التمر"بصيغة الجمع، التي صارت مع الوقت "تمرة" بالإفراد، بل "ثمرة"–بتصحيف آخر–في كتب أخرى!

ومؤرج السدوسي ينقل هذه الرواية، ويتبعها بالأخرى التي كتب لها الذيوع بعد ذلك في كتب الأمثال؛ ربما لسهولة ألفاظها، وكثرة ما جمعت من

(١) مؤرج السدوسي: كتاب الأمثال، ص٤٧.

(٢) ينظر عن هذا: النديم: الفهرست، جـ١ ص ٢٨٠، ٢٨١، ود. شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ص٤٠٤.

(٣) النديم: الفهرست، جـ١ ص٢٨١.

أمثال، في مقابل اختصار الأولى، وقلة أمثالها، وغموض ما بها من معلومات فلكية، فاختفت وغابت عن الكتب التالية كلها!

ولعل مما ساعد على حدوث هذا التصحيف ما هو مأثور عن العرب من حب الضب للتمر، حتى إن الصائد ربما صاده معتمدًا على هذا، وللعرب أشعار في هذا روى بعضها الجاحظ في الحيوان(١)

ويعلل ابن عربي ذكر الضب في هذا السياق بأن العرب تضرب بالضب المثل للحاكم من الإنس، والحاكم تأتي إليه الخلق بأجمعهم فيما يعرض لهم من الأمور فلا يتأخر عنهم فكأن المعنى وصيرهم كذلك(٢)

وقد استغل بعض القصَّاص غرائبية الضب في ترويج بضاعتهم، متخذين من الضب وما يتصل به إطارًا حكائيًّا، كما يبدو من الحديث المنكر المنسوب إلى النبي–صلى الله عليه وسلم– من أن ضبًّا نطق بحضرته شاهدًا بنبوته التي أنكرها أعرابي من بني سليم كان قد صاد الضب.

وعين القارئ لهذا الخبر لا تخطئ سمات كلام القُصَّاص، وتزيدهم، والبناء الميلودرامي لأحاديثهم، لاسيما التغيرات الحادة في مواقف الشخصيات، من النقيض للنقيض، والمبالغة في الأرقام، البادي في تكرار الرقم ألف(٣)

ومن كلام الأعراب الذي وضعوه على ألسنة البهائم، أن الضب خاطر الضفدع أيهما أصبر على الماء، وكان للضفدع حينئذ ذنَب، وكان الضب لا ذنَب له، فخرجا من الكلأ، فصبرت الضفدع يوماً، فنادت: يا ضب وِرْدا وِردا. فقال الضب:

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ص٦١-٦٣.

(٢) الدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص٧١١.

(٣) عن هذا الخبر يُنْظَر: ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق التركي، جـ٩ ص ٣٧-٤٠، وابن كثير يعنون للخبر هكذا: "حديث الضب على ما فيه من النكارة والغرابة"، وابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، جـ٤ ص٣٨١-٣٨٤، الدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص٧٠٦-٧٠٨، والأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق محمد خير طعمة الحلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٥ ٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٥١٠، ٥١١.

أصبح قلبي صرداً . . . لا يشتهي أن يردا

ونادت في اليوم الثاني: يا ضب وردا وردا، فقال الضب:

أصبح قلبي صرداً . . . لا يشتهي أن يردا

إلا عَرَاداً عَرِداً . . . وصِلّيانا بَرِدا

فلما كان في اليوم الثالث، نادت أيضاً، فلم يجبها، وبادرت إلى الماء، واتَّبعها الضبُّ، فأخذ ذنَبها. وقال ابن هرمة:

وقال الضب للضفد . . . ع في بيداء قرواح

تأمل كيف تنجو اليو . . . م من كرب وتطواح

فإني سابح ناج . . . ومأأنت بسبّاح[١]

وأحيانًا تأتي الحكاية مختصرة–أو مصحفة، وبنوا على التصحيف–وأن السمكة هي التي قالت للضب: رِدْ يا ضب، فقال:

أصبح قلبي صَرِدَا لا يشتهي أن يَرِدَا

إلا عَرادًا عَرِدَا وصِلِيَّانًا بَرِدَا

وعَنْكَثًا مُلتَبِدَا[٢]

والتقط الشعراء–كعادتهم–هذا المعنى، وهذه الكناية عن التباعد ما بين الأمرين النقيضين، وجعلوه في أشعارهم، فقال الصابئ شاكيًا حال أهل الأدب وفاقتهم في عصره:

الضبُّ والنونُ قد يُرْجَى اجتماعهما وليس يُرْجَى اجتماعُ المالِ والأدبِ

وقال آخر:

ولو أنهم جاءوا بشيء مقاربٍ لقلتُ: هو الشكلُ الموافق للشكلِ

ولكنهم جاءوا بحيتانِ لُجَّةٍ تُقامِسُ والمدعو فينا أبا الحِسْلِ

وقال حاتم الأصم:

وكيف أخاف الفقر والله رازقي ورازق هذا الخلقِ في العُسْرِ واليُسْرِ

---

(١) ابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ ص٢٩.

(٢) الدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ ٢ص٧٠٣، ٧٠٤ ، واليوسي: جـ٢ ص ٥٠.

تكفَّل بالأرزاق للخلقِ كلهم وللضبِّ في البيدا وللحوتِ في البحرِ[١]

وقال الشاعر:

إن يهبط النون أرضَ الضب ينصره يضلل ويأكله قومٌ غراثينُ[٢]

وضربوا المثل في جهل الرجل، فقالوا: "فلان لا يفرق بين الضب والنون[٣]"

أما قول العرب: "هذا أجلُّ من الحرش"[٤] ، فيذكرون من حديث هذا المثل أن ضبًّا قال لابنه: يا بني اتق الحرش، فقال: يا أبه، وما الحرش؟ فقال: أن يأتيك الرجل فيمسح بيده على جحرك ويفعل ويفعل. فبينما هما في جحرهما سمعا صوت فأس يُحفَر بها عنهما–وفي رواية: فهدم جحرهما بالمرداة– وقيل إن الحسل سأل أباه عن الحرش، فقال: هو أن يبول الإنسان في الجحر فتخرج فتُصاد. فدهمها سيل يومًا، فقال: يا أبت، أهذا الحرش؟ فأجابه: هذا أجلُّ من الحرش! فضُرب مثلاً لمن خشي شيئًا فوقع فيما هو أعظم منه[٥]. ويذهبون إلى أن "أصل الحَرْش: التحريض. ومنه قولهم: حرشتُ بينهم، أي حَرَّضْتُ"[٦]. ولا يرى الباحث هذا؛ فإنما الأصل أن يكون المعنويُّ تابعًا للمادي في دلالة الكلمة؛ فلعل الأصل في التحريض حرش الحارش للضب.

(١) اليوسي: جـ٢ ص ٥٠، ٥١ ، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ ٢ص ٧٠٤.

(٢) الميداني: مجمع الأمثال، ص٢١٧ رقم ١١٤٢، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٢، ص٩٨٩ رقم ٤٤٨٠.

(٣) اليوسي: جـ٢ ص٥٠.

(٤) الأصمعي: كتاب الأمثال، ص١٥٣، وأبو عبيد: كتاب الأمثال، ص ٣٤٢، والمفضل بن سلمة: الفاخر، ص٢٤٢، ٢٨٩، وابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ ص٣١، وأبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ١ص١٦٩ رقم٥٠٤، جـ١ ص٦٦ رقم ٢١٦٣، الآبي: نثر الدر، جـ١ص١١١، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٣، ص ٢٥٩٢ رقم ١٠٢٥١، ص ٢٦٣٤ رقم ١٠٣٨٩.

(٥) الأصمعي: كتاب الأمثال، ص١٥٣، وحمزة الأصبهاني: الدرة الفاخرة، جـ١ ص١١٩، والميداني: مجمع الأمثال، جـ١ ص١٩١، والزمخشري: المستقصى، جـ١ ص٥٠، ٥١، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ ص١٢١.

(٦) المفضل بن سلمة: الفاخر، ص٢٨٩.

وهكذا صار الضب وقصته إطارًا حكائيًّا، احتوى مزيجًا من الشعر والنثر والأسطورة، وتقدم هذا المزيج كله في اتجاه تفسير العالم الحيوي(البيئي)المحيط.

ثانيًا رمزية الضب:

ومن توظيف الضب فنيًّا، أن صار في الثقافة العربية رمزًا أيقونيًّا لعدد من الموضوعات والمفاهيم، كالآتي:

أ-مسخ الضب:

يتقاطع الضب والإنسان ويشبهه في محاور عدة، منها أن أطراف الضب مخمسة الأصابع، وتلك الأصابع القصيرة تبدو للناظر كأصابع الإنسان. وقد حدا هذا ببعض القدماء إلى الاعتقاد بأن الضباب من الأمم التي غضب الله عليها، فمسخها، كما مسخ بعض المغضوب عليهم قردةً وخنازير[١]، "وحرمه قوم ورووا أن أمتين مُسختا، أخذت إحداهما في البر، فهي الضباب، وأخذت الأخرى في طريق البحر ، فهي الجِرِّيّ"[٢]

ويُستشف من العبارة السابقة أن مما رسَّخ فكرة المسخ عند أولئك القائلين بها إبعاد الضب في قلب الصحراء، ونأيه عن مجتمعات البشر. "ورووا عن بعض الفقهاء أنه رأى رجلاً أكلَ لحمَ ضَبٍّ، فقال: اعلمْ أنك قد أكلتَ شيخًا من مَشيَخةِ بني إسرائيل"[٣]. أما ما رواه مسلم في صحيحه من أن أعرابيًّا سأل النبي-صلى الله عليه وسلم-عن أكل الضب، فقال: (يا أعرابي، إن الله لعن أو غضب على سِبْط من بني إسرائيل، فمسخهم دوابَّ يدبُّون في الأرض،

(١) يُنْظَر: الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٧٧.
(٢) السابق، جـ٦ ص٧٧.
(٣) السابق، جـ٦ ص٧٧.

فلا أدري لعل هذا منها، فلستُ آكلها ولا أنهى عنها) [١]، فيقول الدميري معلقًا عليه: "فيُحتمل أن ذلك قبل أن يُعلم أن الممسوخ لا يُعْقِب"[٢]

وبهذا يزول إشكال حكم أكل الضب، حتى أكله الصحابة بحضرة النبي، وحتى قال عمر بن الخطاب–رضي الله عنه–إنه طعام عامة الرعاء، ولو كان عندي طعِمْتُه[٣]. لكن فكرة المسخ بقيت في بعض الأذهان وفي ثقافة بعض أهل الجزيرة العربية حتى الآن، مصحوبة بانطباع سيء عن الضب، وأن ثمة صلة له بالجن، والسحرة وأعمالهم العجيبة الخارجة عن المعتاد[٤]

ب–قوة الضب:

ليس الضب ذلك الكائن العاجز عن التأقلم أو الدفاع عن نفسه كما قد نتخيل؛ بدليل انتشاره الواسع–حتى اليوم–فوق رقعة شاسعة من سطح الأرض، تمتد بين دائرتي العرض الخامسة والخامسة والثلاثين شمالاً، ومن سواحل المحيط الأطلنطي غربًا إلى أطراف الهند شرقًا، لتشمل صحاري شمالي إفريقية، والجزيرة العربية، وإيران، وأفغانستان، وباكستان، وشمال غربي الهند[٥]. وللضب فك قوي، وأسنان قوية[٦]، إذا عض على شيء لم يفلته إلا أن يُذبح أو تقرب شعلة إلى رأسه أو ما بين رجليه، وله أطراف قصيرة قوية، وجلد غليظ خشن، وذيل مغطى بحراشف شوكية، مرتبة في شكل حلزوني

(١) مسلم: صحيحه، الحديث رقم ١٩٥١ص ٨٠٨، ويُنظر كذلك الحديثان السابقان عليه، وأبو داود: سننه، الحديث٣٧٩٥ ص٧١٠، وابن ماجة: سننه، الحديثان ٣٢٣٨ ص٥٤٦، و٣٢٤٠ص٥٤٧ ،

(٢) الدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ص٧١٠، وعن أن الممسوخ لا يُعقِب يُنظر: مسلم: صحيحه، الحديث ٢٦٦٣ ص١٠٦٩.

(٣) مسلم: صحيحه، الحديث١٩٥٠ ص٨٠٨، ويُنظر: ابن ماجة: سنن ابن ماجة، ط١ د. ت، الحديثان ٣٢٣٨ ص٥٤٦، و ٣٢٤٠ ص٥٤٧.

(٤) ينظر : كلام بدر الشمري في آخر صفحة من مقال تركي المغامس وفوز الظاهر: "وللناس في ما يعشقون. . . متعة أكل الضبان!، على الموقع الإلكتروني لجريدة الرأي الكويتية، يوم ٤ مارس ٢٠٠٨م.

(5) Thomas M. Wilms and Wolfgang Böhme: p436.

(٦) أو تراكيب عظمية متطورة إلى ما يشبه الأسنان المتخصصة، إن أردنا الدقة العلمية. ينظر: Thomas M. Wilms and Wolfgang Böhme: p435.

منتظم، ويعتقد بعض الأعراب أن أكله مقو ومنشط[١]، ولهذا قيل في الأمثال: "جاء تضبٌ لثاته على الحاجة"، تعبيرًا عن شدة حرصه عليها[٢]. بل إن في كتب التراث وصايا بأكل قلب الضب، لمن أراد أن يزول عنه الخفقان والحزن[٣]

ومن جوانب القوة في صورة الضب في الذهن العربي، الفحولة الجنسية، البادية في ازدواج قضيب الذكر، وازدواج رحم الأنثى، وكثرة ما تضعه الأنثى من بيض، فلم يكن غريبًا –والحال هذه–أن يُقبل على أكله من يُقبل لتقوية الباه! [٤]، وأن يوصف شحمه المذاب دهانًا ، أو يُنصح بلعق العسل الموضوع في ظرف من جلد الضب لهذا الغرض! [٥]. أضف إلى هذا ما قيل عن تلون الضب بحر الشمس كما تتلون الحرباء[٦]

وعند تعبير الأحلام والرؤى يُقال إن الضب يدل على رجل عربي خدَّاع، في أموال الناس ومال صاحبه[٧]، وغير خافية الصلة بين هذا والمثل القائل: "أخدع من ضب"[٨] ، وقيل: رجل ملعون لأن الضب من الممسوخ، وقيل:

---

(١) ينظر: Thomas M. Wilms and Wolfgang Böhme: p435.

وتركي المغامس وفوز الظاهر: مقال"للناس في ما يعشقون. . . متعة أكل الضبان!، على الموقع الإلكتروني لجريدة الرأي الكويتية، يوم ٤ مارس ٢٠٠٨م.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ٣ ص٦٣، والآبي: نثر الدر، جـ١ ص ٨٨، والميداني: مجمع الأمثال، ص١٦٨ رقم ٨٥٠، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص٩٢١ رقم ٤١٩٥

(٣) الدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ص٧١٢.

(٤) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٥٧، ٧٢–٧٤ ، وابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ٢ ص١٢٤، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ص ٧٠٤.

(٥) الدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ص٧١٢، والقزويني: عجائب المخلوقات، ص٣٧٢والعمري: مسالك الأبصار، جـ٢٠ص ١٣٢، والأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق محمد خير طعمة الحلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٥ ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٥١١.

(٦) الدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ص ٧٠٤.

(٧) السابق، جـ٢ص٧١٢.

(٨) خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص١٧٩ رقم ٧٤٨.

رجل مجهول النسب[١]. ولعل قائل هذا نظر إلى عيش الضب في قلب الصحراء.

وهكذا–ووفق القانون الأول من قوانين علم البيئة–يُفضِي كل شيء إلى غيره، وهو ما يقتضي النظر إلى الروابط بين أدق الأمور وأنآها، في إطار تصور عقلي محوري كلي شديد الاتساع، يدعو إليه من ينظرون إلى الأمور من وجهة نظر بيئية، لا من باب لي أعناق النصوص، ولا من قبيل البهرجة والترف الذهني، وإنما من منطلق توسيع مدى النظر[٢]

جـ–عقوق الضب وأكله أبناءه:

"أعقُّ من ضب"[٣] ، كذا قالوا في أمثالهم. والعقوق هنا ليس العقوق في الاتجاه المعتاد–عقوق الوالدين–بل هو في الاتجاه المضاد؛ ففي ثقافة الأعراب–ثم في الأمثال والأشعار–أن الضب يأكل أبناءه، وأنه يفعل ذلك عقوقًا! أي: لدوافع نفسية[٤]. بينما الهرة–عندهم–حين تأكل أبناءها، إنما تفعل ذلك برًّا بهم، حتى قالوا في أمثالهم: "أبرُّ من هرَّة"![٥]. ولاحظ الميداني التناقض ههنا، فقال: "وهذا مثلٌ قد وضعته العرب في موضعه، وأتت بعلته، ثم جاءت إلى ما هو في العقوق مثل الضبة فضربت به المثل على الضد، فقالوا: "أبر من هرة" وهي أيضًا تأكل أولادها، فحين سُئلوا عن الفرق وجهوا أكل الهرة أولادها إلى شدة الحب لها، فلم يأتوا في ذلك بحجة مقنعة"[٦] ، ثم

(١) الدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ص٧١٣.

(2) heryll Glotfelty and Harold Fromm (editors) , The Ecocritisism Reader : Landmarks in Literary Ecology , The university of Georgia press 1996 ,P108 .

(٣) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٥٨، وأبو عبيد: كتاب الأمثال، ص٣٦٩، أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ٢ ص رقم ١٣٦٩ ، والقالي: أفعل من كذا، ص٧١ ، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص٧١١، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص٦٧١ رقم ٣١٨٩.

(٤) الدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص ٧٠٥.

(٥) ابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ٢ ص٩٠.

(٦) الميداني: مجمع الأمثال، ص٥٤٤ رقم ٢٦١٦.

يحلل الأمر تحليلاً **ثقافيًّا بيئيًّا عميقًا**، ويشفع هذا المثال الذي بين أيدينا بأمثلة أخرى، على انحيازات ثقافية مع كائنات بأعينها وضد كائنات أخرى لها الوضع نفسه! [١]. بينما وصف الجاحظ لأكل الضبة أبناءها يوحي للقارئ أن الدافع باطني، هو الجوع[٢]

والواقع أن فسيولوجيا الجسم في الزواحف تناسب تمامًا ظروف الحرارة المرتفعة؛ فمعظمها يستدفئ بأشعة الشمس، وهذا يساعد على رفع معدل الأيض، ونمط حياة نشطة، حتى دونما عزل جيد للجسم. وهذا–ضمن عدد كبير من التواؤمات العضوية والتشريحية والسلوكية–مكن الزواحف من أن تغزو أشد بيئات العالم حرارة وجفافًا، في صحاري أفريقيا وآسيا وأستراليا والأمريكتين[٣]

وحين تستدفئ ذوات الدم البارد–التي منها الضب–بأشعة الشمس، يندفع دمها إلى جلدها؛ ليستخدم في امتصاص الحرارة، كالماء في أنابيب التدفئة المركزية في لوحات الطاقة الشمسية[٤]؛ ولهذا، فإن احتياجات ذوات الدم البارد من الغذاء قليلة جدًّا، حتى إن غذاءها يعادل أقل من ١٠% من الاحتياجات الغذائية لذوات الدم الحار التي لها الحجم نفسه؛ لأنها تستخدم كمًّا قليلاً للغاية من الطعام في توليد حرارة الجسم، على خلاف ذوات الدم الحار، التي تستهلك أكثر من ٨٠% من طعامها لهذا الغرض[٥]

(١) السابق، ص٥٤٤ ، ونقل عنه خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص٤١٥ رقم ١٩٦٨.

(٢) ينظر: الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٤٨، وابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ٢ ص٩٠.

(٣) بيتر هولاند: المملكة الحيوانية. مقدمة قصيرة جدًّا، ترجمة د. منير علي الجنزوري، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط١ ٢٠١٦م، ص١١٠.

(٤) ديفيد نورمان: الديناصورات. مقدمة قصيرة جدًّا، ترجمة زينب عاطف، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط١ ٢٠١٦م، ص١٠٧.

(٥) ديفيد نورمان: الديناصورات، ص١١١.

والضب زاحف، يحرص على أن تكون فتحة جحره جهة مشرق الشمس؛ ليستدفئ بأشعتها قبل الانطلاق للبحث عن وجبته النباتية(١)، فكيف–والحال هذه–يأكل الضب أبناءه؟ ثم، كيف يفعل من الأساس وهو نباتي ؟!(٢)

الأصل إذن أن الضب لا يأكل أولاده، لكن الاستثناء–الذي ربما رآه أحد الأعراب، فبنى عليه هو ومن بعده **أيقونة ثقافية بيئية**، هي عقوق الضب– أن بعض الحيوانات قد تقتل صغارها، بل تأكلها، وهذا معروف عند كثير من الكائنات: السنوريات، والكلبيات، والقردة، والقوارض، والحشرات، والأسماك، والبرمائيات، والطيور، والزواحف. و للعلماء فروض لأسباب هذه الظاهرة ، منها أن الأم تقدم على قتل صغارها حين تستشعر أنهم ولدوا مرضى، أو أنها عاجزة عن حضانتهم ورعايتهم جميعًا بسبب كثرتهم، أوقلة الغذاء وشح الموارد، بحيث لا تكفيهم جميعًا؛ فتقتل بعضهم لتترك فرصة أكبر للآخرين. ثم إنها لا تهدر ما هو مخزون من الغذاء في أجساد القتلى من صغارها، فتلتهمهم؛ وكيلا تتعفن أجساد القتلى في المكان فتجذب إليه المفترسات(٣)

أي أن في أكل الضب أبناءه نوعًا من الضبط البيئي، خاصة وأن أنثاه تضع–فيما تقول كتب التراث– نحو سبعين بيضة، تخرج كلها صحيحة، ولو تركت كلها لتعيش لغطت الأرض(٤). والعمري ينقل عن القزويني أن الضبة ترى صغارها يتقاتلون عند خروجهم جميعًا–سالمين بلا فقد–من البيض؛ فتأكل بعضًا لتبقي على البقية(٥)

(١) تركي المغامس وفوز الظاهر: مقال"للناس في ما يعشقون. . . متعة أكل الضبان!، على الموقع الإلكتروني لجريدة الرأي الكويتية، يوم ٤ مارس ٢٠٠٨م.

(2) Thomas M. Wilms and Wolfgang Böhme: p436.

(٣) ينظر:

Why do animals sometimes kill their babies? Nationalgeografic. com, published March 28,2014.

(٤) ينظر في هذا: الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٥٢، ٧٦.

(٥) القزويني: عجائب المخلوقات، ص٣٧٢، والعمري: مسالك الأبصار، جـ٢٠ ص١٣٢.

ويشهد لصحة هذا الرأي أن أنثى الضب تفقد ثلاثين إلى خمسة وأربعين في المائة من وزنها عند وضع البيض[١]، وهذا يعني أنها تكون في قمة الجوع آنذاك، وأن الراجح أن جوعها يبلغ ذروته بعدها بأسابيع عندما يفقس البيض، وأن جسدها يصرخ آنذاك طلبًا للبروتين بشكل عاجل؛ لتعويض ذلك القدر الهائل من المفقود منه.

وعز على بعض محبي الضب أن يوصف بالعقوق، وأن يُقال إنه يأكل أبناءه، فذهبوا في الدفاع عنه مذاهب، منها أن أنثاه تبيض ثم تترك الجحر الذي فيه بيضها، وتذهب، ولا ترعاه، لا أنها تأكل صغارها[٢]، وقيل: بل الضب يأكل بعره، أو قيئه لا أبناءه[٣]

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الصفة ألصقت بالضب، وسارت الركبان بأشعارها وأمثالها، وكلها في سياق هجائي بالطبع[٤]. وهكذا يتجذَّر تأثير الضب ، ويتغلغل في عمق الفكر العربي القديم، وتتشعب في أعطافه أنساق ثقافية تبلورت حول أنوية فكرية، تراكمت عن الضب في العقول مع الزمن.

ثالثًا الضب في الشعر:

من الشعر ما كان مجرد تعبير عن الصور الذهنية للضب في عقول العرب، كقول القائل:

يعود في ثعّة حِدْثَانَ مولده . . . فإن أسنّ تغدي نجوه كلفا

والثع: القيء. ويُقال: ثعَّ الرجل ثعا إذا قاء[٥]

(1) Thomas M. Wilms and Wolfgang Böhme: p449.

(٢) ينظر: تركي المغامس وفوز الظاهر: مقال"للناس في ما يعشقون. . . متعة أكل الضبان!، على الموقع الإلكتروني لجريدة الرأي الكويتية، يوم ٤ مارس ٢٠٠٨م.

(٣) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٥٢، ٥٣ ، وابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ٢ ص١٠٠، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص ٧٠٥.

(٤) ينظر أمثلة لهذا في: الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٤٩، ٥٠.

(٥) ابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ص٣٠.

وأشار أبو الوجيه العكلي الأعرابي إلى الصداقة بين الضب والعقرب، فقال:

وأفطن من ضب إذا خاف حارشاً . . . أعدّ له عند التلمس عقربا[١]

وأنشد ابن الأعرابي لابن دعمي العجلي يصف حب الضب للتمر:

سوى أنكم جَرَّبتُمُ فجَرَيتم . . . على دُرْبَةٍ والضبّ يُختَلُ بالتمر[٢]

ويروي أن الضب قال لصاحبه:

أَهَدَمُوا بيتك لا أبالك . . . وزعموا أنك لا أخَا لكا

وأنا أمشي الحيكى حوالكا

يقال: فلان يحيك في مشيته إذا تبختر فيها، وهذا وصف لمشية الضب. يقول: كيف زعموا أنه لا أخالك و أنا أخوك وأمشي التبختر حواليك[٣]ويقابلنا **الضبُ أداةً حجاجيةً**، أفحمت بها حُبَّى المدنيَّة–في العصر الأموي– ابنها على الملأ، حين لامها على أن تزوجتْ فتى حَدَثًا من عمر أبنائها، فقالت:

وَدِدتُ بأنَّهُ ضبٌّ وأنِّي كضَبَّةِ كُدْيَةٍ وَجَدَتْ خَلاءَ[٤]

تمنت أن يكون لها حران وأن لزوجها أيرين؛ استنادًا لما شاع عند العرب من أن هذا من خصائص الضب، وقلة من الكائنات، منها السقنقور والحردون. قال قائلهم:

وحسل له نزكان كانا فضيلةً . . . على كل حاف في البلاد وناعل

النزك: أير الضب وله أيران وللضبة حِرَان، وأنشد الكسائي:

تفرَّقتمُ لا زِلتُمُ قِرْنَ واحدٍ تفرُّقَ أَيْرِ الضَّبِّ والأصلُ واحدُ[٥]

(١) السابق، جـ٢ ص٣٣.

(٢) السابق، جـ٢ ص٣٣، ٣٤.

(٣) السابق، جـ٢ص٣٦.

(٤) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٧٥، وابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ ص٣٢، والقصة في حمزة الأصبهاني: الدرة الفاخرة، جـ١ص٢٥٦ وما بعدها، و الميداني: مجمع الأمثال، ص٣٩٠ رقم ٢٠٤٩.

(٥) ابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ ص٣٢، والجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٧٤.

وحُبَّى هذه هي التي قيل فيها: "أَشْبَقُ من حُبَّى"[١] ، والقصص تُروَى في كتب الأمثال عن زواجها بعدما أسنَّت بشاب في عمر ابنها، غير ملتفتة لما يقول القائلون، ولا آبهةٍ بشكوى ابنها لمروان بن الحكم والي المدينة، ولا مصغية لتدخل هذا الأخير في الأمر، وإنما ردت على كليهما بكلمات لاذعة جرت مجرى الأمثال، وذكرها هُدبة بن الخشرم في شعره! [٢]. وهذه قصة طريفة، وتصرف جريء، يُذكر الباحث بالنسوية البيئيةEcofeminism، الداعية إلى أن البيئة والمرأة قرينان قوةً وضعفًا، وأن دمار البيئة والاضطهاد التاريخي للنساء مرتبطان بقوة، ومن ثم تأتي الدعوة إلى تحدي المفاهيم المزدوجة والتراتبية في شأن النساء والبيئة على السواء[٣]

كما أن **الضب أداة حجاجية فعالة** أيضًا في إثبات العروبة ونفي العجمة، أو العكس. قال الشاعر العربي لخصمه:

وأنت لو ذقت الكشى بالأكباد . . . لما تركت الضّب يعدو بالواد

الكشية شحم بطن الضب، يقول: لو عرفت طعمها مع الأكباد لصدت الضب ولم تتركه، والمكن بيض الضب. . وروي عن بعض الصالحين أنه قال: ضبة مكون أحب إليّ من دجاجة سمينة. وقال أبو الهندي:

ومكن الضباب طعام العريب . . . ولا تشتهيه نفوس العجم

وقال آخر وهو جران العود:

قريت الضب من حُبي كشاها . . . وأيّ لوية إلا كشاها

فلولا أن أصلك فارسي . . . لما عبت الضباب ومَن قَرَاها

(١) يُنْظَر: حمزة الأصبهاني: الدرة الفاخرة، جـ١ص٢٥٦ وما بعدها، والعسكري: جمهرة الأمثال، جـ١ ص ٤٦١، والآبي: نثر الدر، جـ٤ ص٧٣، والميداني: مجمع الأمثال، جـ١ ص٣٨٧، والزمخشري: المستقصى، جـ١ ص١٨٥-١٨٧.

(٢) يُنْظَر: شعر هُدبة بن الخشرم العذريّ، د. يحيى الجبوري، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط٣ ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٧٨، ٧٩، وابن منظور: لسان العرب، مادة"حبب".

(٣) يُنْظَر: نجاح الجبيلي: النقد البيئي، ص٣٢٧.

اللوية: الطعام الطيب، واللطف يرفع للصبي والشيخ[١]. ومما كانوا يذمون به أهل المدن في الدولة الأموية–وكانت دولة عربية كما هو معلوم– أكلهم الدجاج، الذي ربما صار من الجلَّلَة، فأكل العَذِرَة وما يُستقذَر[٢]، بينما الضب–أيقونة العروبة–بعيد عن هذا كل البعد، في أعماق صحرائه. وكأن الضب صار–مع الزمن وتداول الشعراء والأدباء لهذا المعنى–رمزًا للعروبة الخالصة والبداوة، في مقابل الدجاج، الذي قُرِنَ بالحضارة، ثم بالفُرْس وسائر الموالي. والناس في ذلك العصر وفي العصر العباسي الأول متشبثون بكل ما يُؤصل انتماءهم العربي. يقول الجاحظ في ملاحظة عبقرية: "فإن زعمتَ أن غالبًا كان إسلاميًّا وكان حاتم في الجاهلية، والناس بمآثر العرب في الجاهلية أشدُّ كَلَفًا، فقد صدقتَ. وهذا أيضًا يُنبئك أن الأمور في هذا على خلافِ تقدير الرأي، وإنما تجري في الباطن على نسق قائمٍ، وعلى نظر صحيح، وعلى تقدير مُحكم"[٣]. والتشابه واضح جليّ بين كلمات الجاحظ هنا، وما يبحث عنه النقاد الثقافيون–في النقد البيئي وغيره–من"أنساق ثقافية مضمرة"في الملفوظ!

وشنَّ المنتصرون للثقافة الفارسية خاصة وللأعاجم عامة–من الشعوبيين وغيرهم–حملة مضادة، كان أبو نُواس من حملة ألويتها، ومن شعره المشهور:

إذا ما تميميٌّ أتاك مُفاخرًا فقل: عَدِّ عن ذا، كيف أكلُك للضَّبِّ؟
تُفَاخِرُ أبناءَ الملوكِ سَفاهةً وبَوْلُك يجري فوق ساقِكَ والكَعْبِ؟![٤]

وقال آخر:

همُّ الكرامِ كريمُ الأمر تفعلُه وهَمُّ سَعدٍ بما تُلقِي إلى المَعِدِ
أصحابُ ضَبٍّ ويَربُوعٍ وحنظلةٍ وعيشة سكنوا منها إلى ضَمَدِ
إن يأكلوا الضب باتوا مُخصبين به وزادُها الجوعُ إن باتت ولم تُصِدِ[٥]

(١) ابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ص٣٦.
(٢) يُنظر هجاء عبد الرحمن بن الحكم الأنصارَ بهذا في: الجاحظ: الحيوان، جـ١ص٢٣٣، ويُنظر فخر أعرابي على أهل المدن به في جـ٣ ص٥٢٦.
(٣) الجاحظ: الحيوان، جـ٢ص١٠٨.
(٤) السابق، جـ٦ص١٠٢.
(٥) السابق، جـ٦ص١٠٢.

وتيقظ النزعات القومية ، خاصة في العراق، منذ العصر الأموي، هو الذي دفع الذين انطوت نفوسهم على حفيظة مما فعل الأمويين إلى محاولة إبراز مثالب العرب لتثقل بذلك موازين الفرس عليهم[١] (١٢٠). وكان من وسائل ذلك، التركيز على شظف العيش في البادية، وخشونة مطعم أهلها، ومن ذلك أكلهم الضب، في مقابل تنعم أهل الحواضر في المآكل والمشارب. أي أننا أمام سجال ثقافي حضاري خصب، يتكئ إلى عناصر بيئية منها الضب.

ومن الشعر ما يدخل في نطاق الإبداع المتكئ على الضب موضوعًا، أو معادلاً موضوعيًّا، ووسيلة لنقل المعنى المراد. **والملاحظ أن هذا كان في غرضي المدح والهجاء بالذات**، وهما–عند العرب القدماء–عمود الشعر وجوهره، وأهم أغراضه؛ لأن بهما يكون الرفع والخفض للمكانة الاجتماعية، وبهما نفع الوليّ وضرّ العدو. وملاحظة أخرى، هي **ولع كُثيِّر بن عبد الرحمن(كثير عزَّة) بتوظيف الضب** في مدحه؛ ولعل ذلك كان منه لأنه شاعر عبد الملك بن مروان أشهر الخلفاء الأمويين. وكانت الدولة الأموية دولة عربية تتشبث بكل ما يمت للهوية العربية الخالصة بصلة.

أولاً الضب في سياق المدح:

ويضرب له الباحث ثلاثة أمثلة، هي الآتي:

١–قول كثير:

فإن شئتَ قلت له صادقًا وجدتُك بالقُفِّ ضبًّا خجولاً

من اللاءِ يحفِرنَ تحتَ الكُدَى ولا يبتغينَ الدِّماث السُّهولا[٢]

٢–وقوله أيضًا:

ومحترشٍ ضبَّ العداوةِ منهم . . . بحلو الرقي حرشَ الضباب الخوادعِ

(١) عبد الحميد الشلقاني: رواية اللغة، دار المعارف بمصر، د. ت، ص٥٩.

(٢) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ص٤٠ ، وابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ ص٣١.

وقوله: ضب العداوة يعني الحقد الكامن في القلب، وإنما سمي ضبًّا لأن الضب إذا خدع في جحره وصف عند ذلك بالمكر والخبث، فيقولون: خب ضب وأخدع من ضب، فشبه الحقد الكامن الذي يعسر استلاله بالضب إذا خدع في جحره أي دخل وهو حينئذ أخبث ما يكون وأعسر صيداً[١]

٣-وقال كثير كذلك:

ومازالت رقاك تسل ضغني . . . وتخرج من مكامنها ضبابي

أي أحقادي[٢]

يمدح عبد الملك بن مروان بهذا البيت، فيستثمر الضب فنيًّا استثمارًا مزدوجًا، بأن مدح بما إن تأمله القارئ وجده هجاءً، وأكد الهجاء بما يشبه المدح، وعبر عما في نفوس أهل الحجاز آنذاك من ضغائن للسلطة الأموية الحاكمة في دمشق، ولا آصل من التعبير عن الأحقاد والضغائن الكامنة في الصدور من الضب الكامن في جحره إذا لم تكن الظروف مواتية للخروج منه. هذه واحدة، والثانية أنه جعل الخليفة راقيًا، يسل الأضغان برقاه، وفي هذا حط من شأنه وغمز له.

وهكذا قام بالدور الذي أراده إدوارد سعيد للمثقف، الذي يرى أن عليه يقع عبء تمثيل العامة في مقاومة أشكال السلطة جميعًا، لا يدفعه إلا ما يؤمن به من قيم ومبادئ إنسانية عامة، قائلاً: "ومن هنا ينبع تصويري للمفكر في صورة المنفيّ والهامشيّ والهاوي، وفي صورة مؤلف لغة تحاول أن تنطق بالصدق في وجه السلطة"[٣] (١٢٤). إن المثقفين-في رأيه-أفراد لهم رسالة، وهي رسالة فن تمثيل شيء ما. . وترجع أهمية هذه الرسالة إلى إمكان الاعتراف بها علنًا،

(١) ابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ ص٣١.

(٢) السابق، جـ٢ ص٣٢.

(٣) إدوارد سعيد: المثقف والسلطة، ترجمة د. محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١ ٢٠٠٦م، ص٢٦.

وإلـى أنهـا تتضـمن الالتـزام والمخـاطرة فـي الوقـت نفسـه، وكـذلك الجسـارة والتعرض للضرر"[١] (١٢٥)

ثانيًا الضب في سياق الهجاء:

وفي مقابل أمثلة المدح الثلاثة، يسوق الباحث أحد عشر مثالاً للهجاء المعتمد على توظيف الضب، أي ما يقارب ثلاثة أمثالها؛ ليثبت أن توظيف الضب في الشعر كان إلى السلب والانتقاص من شأن الخصم أقرب، كالآتي:

١-قول خالد بن الطيفان:

ترى الشر قد أفنى دوابر وجهه كضبِّ الكُدى أفنى براثنَه الحفرُ[٢]

٢-قول دريد بن الصمة(وقيل: حاتم الطائي):

لأخرجَ ضَبًّا كانَ تحتَ ضُلوعِه وأقْلِمَ أظْفَارًا أطالَ بها الحفْرَا[٣]

٣-وقال دُريد بن الصمَّة أيضًا:

وجدنا أبا الجبار ضبّاً مرئّساً . . . له في الصفاة برثن ومعاول

والمرئس: الذي يخرج رأسه من جحره وإذا فعل ذلك غلبته الحية وربما قتلته[٤]

٤- وقال عَمَلَّس بن عُقيل بن عُلَّفَة لأبيه:

أكلتَ بنيكَ أَكْلَ الضبِّ حتى وجدتَ مرارةَ الكلأِ الوَبيلِ

فلو أنَّ الأُولَى كانوا شهودًا مَنَعْتَ فِنَاءَ بيتكَ مِنْ بَجِيلِ[٥]

٥- وقال أحد الشعراء في المعنى نفسه:

أكلتَ بنيك أكلَ الضب حتى تركتَ بنيكَ ليس لهم عديدُ[٦]

---

(١) السابق، ص ٤٥.

(٢) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ص٤٠، وابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ ص٣١.

(٣) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ص٤١.

(٤) ابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ ص٣٤، والجاحظ: الحيوان، جـ٦ص٤٠، وفيه"مورَّشًا"بدل"مرئسًا".

(٥) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص ٤٩، وابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ ص٣٠.

(٦) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٤٩ ، وابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ ص٣١، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص ٧٠٥.

٦-وانتهز عمرو بن مسافر أن اسم جده "ضب"، فقال:

كيف ألوم أبي طيشًا ليرحمني وجده الضبُّ لم يترك له ولدًا[١]

٧-وقال خداش بن زهير:

فإن سمعتم بجيش سالك سرفا أو بطن مرٍّ فأخفوا الجرس واكتتموا

ثم ارجعوا فأكبوا في بيوتكم كما أكب على ذي بَطنِه الهَرِمُ[٢]

الهرم: الضب ها هنا، وجعله هرماً لطول عمره، وذو بطنه ولده والضب يأكل حسوله، يقول: ارجعوا عن الحرب التي لا تستطيعونها إلى أكل الذرية والعيال[٣]، ولا شك في أن الشاعر أخذ هذا من قولهم في الأمثال: "أخذه أخذَ الضبِّ ولده"[٤]

٨-وقال آخر:

يا ظرباناً يتفسّى ضبّاً . . . أي العقاب فوقه فجَبيّ[٥]

٩-وقال ابن أحمر:

أبلغ سراة بني رفاعةألـ . . . صِقْ بالغطارف منهم الزُّهْرِ

بِكَ عِتْرَةُ الضبِّ الذليلةِ تحـ . . . رنْبي على أرحائها الخضرِ

عترته: قرابته. تحرنبي: تنتفش. والخضر: من نعت الأرحاء يقول هي من صخر صلب أخضر، يشير إلى المرداة التي يحفر عندها الضب، يجعلها علمًا يهتدي به لبيته[٦]

١٠-وقال آخر:

أعام بن عبد الله إني وجدتكم . . . كعرفجة الضّب التي تتذلل

---

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٥٠.

(٢) البيتان عند ابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ص٣٠، والبيت الأول في الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٥٠.

(٣) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٥١، وابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ص٣٠.

(٤) الميداني: مجمع الأمثال، ص٣٢ ، والآبي: نثر الدر، جـ١ص١١٢، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص١٨٢ رقم ٧٦٩.

(٥) ابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ ص٣٦.

(٦) السابق، جـ٢ ص٣٣.

العرفجة لينة وعودها لين فالضب يعلوها ويتشوف عليها، شبههم في لينهم وضعفهم بالعرفج، ولست ترى الضباب أبداً إلا وهي سامية برأسها تنتظر وتترقب(١)

١١-وقال آخر:

مناتين أبرام كأن أكفّهم . . . أكفّ ضباب أنشبت في الحبائل

انشقت علقت: يقال: أقصر من إبهام الضب، واقصر من إبهام الحباري وأقصر من إبهام القطاة، أراد صغر أكفهم(٢)

رابعًا التوظيف الفني للضب في الصور البيانية:

وشاع استعمال الضب في التشبيه والكناية، وهو في الأول أكثر. وهاهي أمثلة للأمرين:

أولاً الضب في التشبيه:

١-قال كثير:

فإن شئتَ قلتَ له صادقًا وجدتُك بالقُفِّ ضبًّا خجولاً

من اللاءِ يحفرنَ تحتَ الكُدَى ولا يبتغينَ الدِّماث السُّهولا(٣)

وواضح أن كثير ممن أكثروا من استعمال الضب في أشعارهم.

٢-وقال حذيفة بن دأب:

لئن خُدعَتْ حُبَّى بسُبٍّ مزَعْفَرٍ فقد يُخدَعُ الضبُّ المخادعُ بالتمرِ(٤)

٣-وقال ابن دُعْمِيّ العِجليّ:

سِوى أنكم دُرِّبتُم فجريتم على دُربَةٍ، والضَّبُّ يُحْبَلُ بالتمرِ(٥)

٤-وقال القشيري:

وما كنتُ ضبًّا يخرج التمر ضغنَه ولا أنا ممن يزدهيهِ وَعيدُ(٦)

---

(١) السابق، جـ٢ص٣٦.

(٢) السابق، جـ٢ص٣٦، ويُنظر: خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٣ص ٢٦٦٦.

(٣) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ص٤٠ ، وابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ ص٣١.

(٤) السابق، جـ٦ص٦١.

(٥) السابق، جـ٦ص٦٢.

(٦) السابق، جـ٦ص٦٢.

٥-وقال الشاعر:

إنَّا مُنينا بضبٍّ من بني جُمَحٍ يرى الخيانةَ مثلَ الماء بالعسَلِ[١]

٦-وقال آخر:

كأنهما ضبانِ ضبَّا مغارةٍ كبيرانِ غَيداقانِ صُفْرٌ كُشاهما

فإن يُحْبَلا لا يُوجَدا في حِبَالةٍ وإن يُرصَدا يومًا يَخِب راصداهما[٢]

٧-أما معن بن أوس فقال:

ألا مَنْ لمولى لا يزالُ كأنهُ صَفًا فيه صدعٌ لا يُدانيه شاعِبُ

تَدِبُّ ضِبَابُ الغِشِّ تحتَ ضلوعِه لأهل الندى من قومِهِ بالعقاربِ[٣]

٨-وقال عَبدة بن الطبيب ليحيى بن هزَّال، ضاربًا بالضب مثلاً في الكِبْر:

ما كُنْتَ أولَ ضبٍّ صاب تلعَتَهُ غيثٌ فأمرَعَ واسترخَتْ به الدارُ[٤]

٩-وقال دَعلَج بن المِنجاب:

إذا كان بيتُ الضب وَسْطَ مَضَبَّةٍ تَطاوَلَ للشخصِ الذي هو حابِلُه

يقول الجاحظ:

"المَضَبَّة: مكان ذو ضباب كثيرة. ولا تكثر إلا وتربها حية أو ورل، أو ظربان. ولا يكون ذلك إلا في موضع بعيد من الناس. فإذا أَمِن وخلا له جوُّه، وأخصَب، نفخ وكشَّ نحو كل شيء يريده"[٥]. وهو يعلل هذا التصرف من الضب تعليلاً نفسيًّا، فيقول إنه نوع من التعويض، وإن هذا ديدن الأجناس الذليلة؛ فالذلة والقلة مانعتان من ظهور الكِبْر فيها، "والجملةُ أنَّ كل من قَدَرَ من السِّفْلَة والوُضعاء والمحقَّرين أدنى قدرةٍ، ظهر من كِبْرِه على من تحت قُدرته، على مراتب القدرة، ما لا خفاء به"[٦]

(١) السابق، جـ٦ص٦٥.

(٢) السابق، جـ٦ ص٦٦ ، وابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ ص٣١.

(٣) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٦٦.

(٤) السابق، جـ٦ ص٦٨.

(٥) السابق، جـ٦ ص٦٨.

(٦) السابق، جـ٦ ص٧١.

ثانيًا الضب في الكناية:

وكما كانت الأمثلة على التشبيه بالضب من عصور وبيئات متنوعة، كذلك هي أمثلة الكناية به. كالآتي:

١-قال أمية بن أبي الصلت في مدح عبد الله بن جدعان، وقد جاءه يطلب نائله:

يباري الريحَ تَكْرُمَةً ومجدًا إذا ما الضبُّ أجحره الشتاءُ[١]

فالضب لا يبرح جحره في الشتاء، ومعنى البيت: حين تشتد حاجة الناس لمن يبذل لهم الطعام وقت شدة البرد في الشتاء يبادر ذلك الممدوح إلى ذلك.

٢-وقال أبو دَهْبَل الجمحيّ:

فاعلمْ بأني لِمَن عاديتَ مضطغنٌ ضَبًّا وإني عليكَ اليومَ محسودُ[٢]

٣-وقال الكميت:

يؤلف بين ضفدعة وضبّ . . . ويعجب أن نبرّ بني أبينا[٣]

٤-ويقول ابن ميادة ضاربًا عن نفخ الضب وتوثبه:

فإن لقيسٍ من بَغِيضٍ أقاصياً إذا أَسَدٌ كَشَّتْ لفخرٍ ضِبابُها[٤]

٥-وقال عبدة بن الطبيب في الشاهد المشهور في كتب علم المعاني:

إن الذين ترونهم خُلَّانَكُمْ يَشْفِي صُداعَ رءوسهم أن تُصْرعوا

فَضَلَتْ عداوتُهم على أحلامهم وأبتْ ضِبابَ صُدورِهم لا تنزعُ[٥]

ويبدو أن عبدة كان-ككثير عزة-مكثرًا من ذكر الضب في شعره

(١) الدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص ٧٠٦.

(٢) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٦٦.

(٣) ابن قتيبة: المعاني الكبير، جـ٢ ص٢٩.

(٤) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٦٧.

(٥) السابق، جـ٦ ص٧٢.

المبحث الثالث: صور الضب وأدواره ونطاقات فعله الثقافي

لكل كائن حي وجودان: مادي، يتجسَّد به فيشغل حيزًا من الفراغ، ومعنويّ يمتد به تأثيره المكاني والزماني والثقافي إلى مدى أبعد. وقد انداحت دائرة تأثير الضب في الثقافة العربية، فغدت كلمة"الضب"، تُطلق على ورم في خف البعير، وضبة الحديد، والجبل الذي مسجد الخيف في أصله، وضبة الكوفة وضبة البصرة قبيلتان من العرب، وضرب من الحلب، وهو أن يجمع الحالب خِلْفَي الناقة في كفيه جميعًا(١). ومن قبائل العرب بنوضبَّة، وهي قبيلة من العرب العدنانية، منسوبون إلى جدهم ضبة بن أد بن طابخة، ومن أعلام قبائلهم الذين ضربت في بعض شأنهم الأمثال: الضب بن أروى الكُلاعيّ(٢)

والضِّبَاب كانوا من أقوى القبائل، ومن جمرات العرب الأربع(٣)والدليل على امتداد تأثير الضب في الثقافة العربية، أدواره المتنوعة فيها، واستخدامه في الأمثال للتعبير عن معانٍ شتى، أهمها الآتي:

١-الإشارة إلى البدايات الحسنة للأمور:

"قال أبو الهيثم: تقول العرب: أولُ ما أطلَعَ ضبٌّ ذَنَبَه، يُقال ذلك للرجل يصنع الخير ولم يكن صنَعَه قبل ذلك"(٤)

٢-الخبرة بأمر من الأمور، ومعرفته من وجوهه:

قالوا في هذا: "أتُـعْلِّمني بضب أنا حرشته؟!"(٥) ، لمن يخبرك بشيء أنت به أعلم منه

---

(١) الدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص٧٠٣.

(٢) الميداني: مجمع الأمثال، ص٧١١ رقم ٣٥٢٦.

(٣) القالي: الأمالي، ص٥٨٤.

(٤) الأزهري: تهذيب اللغة، مادة "أول"، جـ١٥ص ٤٥٨، والميداني: مجمع الأمثال، ص٦٧ رقم٣٠٤، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص٧٢٦ رقم ٣٤٤٠.

(٥) القاسم ابن سلام: كتاب الأمثال، ص٢٠٢، وابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ٣ ص ٤٦، وأبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال، جـ١ص٦٦ رقم ٦٠، والآبي: نثر الدر، جـ١ص١١١، والثعالبي: التمثيل والمحاضرة، ص٣٧٦، والميداني: مجمع الأمثال، ص١٢٩ رقم ٦٣٢، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ ص٩٥ ، ص٨٦٩ رقم ٣٩٨٩، جـ٣، ص ٢٦٤٣ رقم١٠٤٢٣، وفي =

٣-طول العمر:

وفي هذا قيل: "أحيا من الضب"[١]. وصيغة أفعل في هذا المثل من الحياة لا الحياء؛ فكتب التراث تنقل لنا زعم الأعراب والرواة أن الضب يعيش أكثر من سبعمائة سنة، ولا تسقط له سن، ولا يبول إلا كل أربعين يومًا قطرة واحدة[٢]. ولا سبيل لهم قطعًا إلى إثبات هذا، أو أن يكون منهم عن تجربة أو مراقبة دقيقة، لكنه يدل دلالة ناصعة على ما وقر في أنفسهم من طول عمر الضب، وصلابته. وتناقلت أجيالهم هذا حتى عصرنا هذا، حتى إن بعض الأعراب يظن أن أكل الضب يطيل العمر! [٣]

وتحت هذا المعنى تندرج أمثال أخرى للعرب، منها: "أطول من ذَماءً الضب"[٤]. والذماء بقية النفس، والضب تبقى نفسه بعد الذبح وفري الأوداج، وهشم الرأس، والطعن النافذ، حتى يكون في ذلك أعجب من الخنزير والكلب

=

القالي: الأمالي، ص٢٨٠ "لأنا أحذر من ضب حرشته"، وعنه نقل خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص١٣٧ رقم ٥٢٦، و"إنه لأخدع من ضب حرشته"في جـ١ ص٦٦٩، رقم ٣١٦٣، وعند أبي هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ٢ ص٦٧ "هو أعلم بضب حرشه"، وهذه الرواية نقلها خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٣، ص ٢٦٤٣، رقم ١٠٤٢٤، و هناك رواية أخرى: "ذاك ضب أنا حرشته"في: خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٢، ص١١٥٩ رقم ٥٠٤٢.

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٦٤، وأبو عبيد: كتاب الأمثال، ص٣٦٩، وحمزة الأصبهاني: الدرة الفاخرة، جـ١ ص١٦٠، وأبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ١ ص٣٢٣ ، والميداني: مجمع الأمثال، ص٢٢٣ رقم ١١٧٤، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص٧١١، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص١٧٣ رقم ٧٠٩ ، ص٦٦٩ ، رقم ٣١٦٢.

(٢) اليوسي: زهر الأكم، جـ٢ ص١٤٨، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص ٧٠٣، والأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف، ص٥١٠.

(٣) ينظر: تركي المغامس وفوز الظاهر: مقال"للناس في ما يعشقون. . . متعة أكل الضبان!، على الموقع الإلكتروني لجريدة الرأي الكويتية، يوم ٤ مارس ٢٠٠٨م.

(٤) أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ٢ ص ١٨ رقم ١٢٢٩، والميداني: مجمع الأمثال، ص٤٤٣ رقم ٢٣١٧، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص٣٧٥ رقم ١٨٠٠.

والخنفساء، وكل ما يضرب به المثل في طول الذماء[١]، و"أعمر من ضب"[٢]. وعن الأصمعي: يبلغ الحسل مائة عام، ثم تسقط سنه، فيسمى حينئذٍ ضبًّا، وأنشد لرؤبة:

فقلتُ لو عُمّرتُ سنَّ الحسلِ. . . أو عُمر نوحٍ زمنَ الفِطَحلِ

والصخر مبتل كطين الوحلِ. . . صرتُ رهين هَرَمٍ أو قتلِ[٣]

٤-الخداع والحيلة:

فقالوا عن المخادع إنه"أخب من ذي ضب"[٤] ، وتفسر الأمر الصيغة الأخرى للمثل: "أخب من ضب"[٥] ، ومثل آخر صيغته: "هو خبٌّ ضَبّ"[٦]. ومن أمثالهم أيضًا: "أحذَرُ من ضب"، قائلين إن من حذره أنه يتقي إمساك الحارش له من ذيله، بأن يجعل في جحره عقربًا، فإذا سمع صوت الحارش استثفرها، فألصقها بأصل عجب ذنبه من تحت، وضمَّ عليها، فإذا أدخل الحارش يده ليقبض على أصل الذنب لسعته العقرب، يقول الشاعر:

وأخدعُ من ضَبٍّ إذا جاء حارشٌ أعدَّ له عند الذنابة عقربًا[٧]

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٥٤، ٦٤، وابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ٢ ص١٢٣، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص ٧٠٥.

(٢) أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ٢ ص٦٦ رقم ١٤٠٦، وابن عبدربه: العقد الفريد، جـ٣ ص١١، و خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص٤٢١ رقم ١٩٩٧.

(٣) الأصمعي: كتاب الأمثال، ص٥٠، والميداني: مجمع الأمثال، جـ٢ ص٥٤٦، المثل رقم ٢٦٣٣، والشعر فيه، وفي ديوان رؤبة، ص١٢٨، وعند اليوسي: زهر الأكم، جـ٢ ص ١٤٨.

(٤) أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ١ ص٣٥٦ رقم ٦٧١، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص ١٧٥ رقم ٧٢٧.

(٥) في الصفحة نفسها رقم ٧٦٢، وكذلك ص٣٣٥، ٣٥٧ ، وفي القالي: أفعل من كذا، ص٧١، والثعالبي: التمثيل والمحاضرة، ص٣٧٦، والميداني: مجمع الأمثال، ص٢٦٣ رقم ١٣٦٩، و، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص ١٧٥ رقم ٧٢٨.

(٦) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٤٣، والقالي: أفعل من كذا، ص٧١، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٢، ص١٠٦٦ رقم ٤٧٢٨، جـ٣، ص ٢٦٥١ رقم ١٠٤٥٧.

(٧) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٥٣، ٥٨، ٥٩، والميداني: مجمع الأمثال، ص٢٦٣ رقم ١٣٧٣، واليوسي: زهر الأكم في الأمثال والحكم، جـ٢ ص١٨٧، ١٠٥، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص٧١١.

أو أنه لا يستثفر العقرب، ولكن بينهما ألفة؛ فهي تأوي إلى جحره، لا يعرض أحدهما لبيض الآخر ولا له بأذى. ثم من مد إلى الضب لسعته العقرب[١]. لكن تناقضًا يبدو ههنا؛ إذ كيف يصفونه بالحكمة–حتى إن الحيوانات ترتضيه حكمًا بينها–وبالخداع والحيلة، ثم نجد مثلاً لهم يقول: "أَبْلَه من ضب" و "أبلد من ضب"؟![٢]. ولعل "أخدع" هنا من "الخدع"، وهو الاستتار، لامن الخديعة؛ فالضب يستتر في أعماق جحره ما استطاع حين يحس بالخطر، "وإذا خدع في زوايا جحره فقد توثق لنفسه عند نفسه "كما يقول الجاحظ[٣]؛ "ولذلك شبهوا الحقد الكامن في القلب ، الذي يسري ضرره، وتدب عقاربه بالضب، فسموا ذلك الحقد ضَبًّا"[٤]

وربما يكون المقصود أحد معاني البله، وهو الغفلة عن الشر خاصة، أو أن الأبله هنا: المأمون الشر، أو الذي غلبت عليه سلامة الصدر[٥]. وقد يُطلَق البَلَه عند العرب على تعسف طريق لا يُهتدى فيها، ولا يُستقامُ على صوبها، وعلى هذا المعنى لا تناقض؛ إذ الضب يُضرب به المثل في النسيان لمكان بيته، وضلاله عنه[٦]. وكيف يكون الضب أبله، والجاحظ يقول: "وقالوا: ومن كَيْس الضب أنه لا يتخذ جُحره إلا في كُدْيَة–وهو الموضع الصلب–

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٥٩، واليوسي: زهر الأكم، جـ٢ ص١٨٧، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص ٧٠٥، وتركي المغامس وفوز الظاهر: مقال"للناس في ما يعشقون. . . متعة أكل الضبان!، على الموقع الإلكتروني لجريدة الرأي الكويتية، يوم ٤ مارس ٢٠٠٨م.

(٢) الدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص٧١١.

(٣) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٤٣.

(٤) السابق، جـ٦ ص٦٦، ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، الناشر المكتبة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ، د. ت، جـ٣ ص٧٠.

(٥) اليوسي: زهر الأكم في الأمثال والحكم، جـ١ ص٢٠٥.

(٦) السابق، جـ١ ص٢٠٥، خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ ص٦٧.

أو في ارتفاع عن المسيل والبسيط، ولذلك توجد براثنه ناقصةً كليلة؛ لأنه يحفر في الصلابة، ويُعمِّق الحَفْر"[١] (١٧٦)

وقد استغل الشعراء هذه السمة في الضب في بناء تشبيهاتهم، فقال خالد بن علقمة:

ترى الشر قد أفنى دوائر وجهه كضبٍّ الكُدَى أفنى براثينَه الحفْرُ[٢]

ويتوخَّى بجحره "الارتفاع عن مجاري السيل والمياه، وعن مَدَقّ الحوافر؛ لكيلا ينهار عليه بيته"[٣]. ومن حكمته أيضًا أنه "لمَّا علم أنه نَسَّاء سيء الهداية، لم يحفر وجاره إلا عند أكمة، أو صخرة، أو شجرة؛ ليكون متى تباعد من جحره لطلب الطعم، أو لبعض الخوف فالتفت ورآه–أحسن الهداية إلى جحره. ولأنه إذا لم يُقِم عَلَمًا فلعله أن يلج على ظربان أو ورل، فلا يكون دون أكله له شيءٌ. فقالت العرب: "خب ضب"، و"أخب من ضب"و"أخدع من ضب"، و"كل ضب عند مرداته". وإذا خدع في زوايا حفيرته فقد توثق لنفسه عند نفسه"[٤]

هكذا يستخدم الجاحظ– على عهدنا به–مهاراته الكلامية، وأدواته المنطقية، في تصوير ذكاء الضب ، وحكمته، وحنكته.

حتى إن وجدنا تناقضًا ظاهرًا بين مثلين عن كائن واحد هو الضب، فليس هذا بالأمر العجاب؛ ذلك أن الحياة تحوي صنوفًا شتى من المدركات والأحوال المعاشة، التي تنتهي بالمرء إلى ما نسميه التجربة. ومع أن التجارب تتكرر، فإنها تظل وحدات متنوعة، لكل منها تفرده، حتى إنها تستعصي حين

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٣٩، ٥٦، ٥٧ ، واليوسي: زهر الأكم، جـ٢ ص١٤٨، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص ٧٠٥، والقزويني: عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط١ ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص٣٧٢، والعمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ ٢٠١٠م، جـ٢٠ص١٣٢.

(٢) البيت في: اليوسي: زهر الأكم، جـ٢ ص١٤٨.

(٣) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص ٧٠٥.

(٤) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٤٣، ٤٢.

نحاول أن نخضعها لأحكام عامة ثابتة، لكنها قد تتقاطع، وقد تتشابه نتائجها، وقد يحدث عكس ذلك، في ظل قوتين تتجاذبان الإنسان: عالمه الكبير، وعوالمه الصغيرة(١)

٥-الضلال والحيرة:

وقالوا: "خلِّهِ دَرَجَ الضَّب"، وهذا مثل يُضرب في الأنفه من صحبة من لا تليق صحبته(٢)، معناه: دعه يذهب حيث شاء(٣)في غيه وضلاله كذهاب الضب؛ لأن الضب-عند العرب-أسوأ الحيوان هدايةً؛ ولهذا قالوا في مثل آخر: "أضل من ضب"(٤) ، وقالوا في التخبط والحيرة: "أحير من الضب"(٥) ، و"أحير من الورل" لأن الورل لا يخرج نهارًا إلا نادرًا، فربما خرج في الشمس فتحير فصيد بسهولة(٦)

٦- عدم الاغترار بالسلامة:

وفرَّعوا عن وصف الضب بالضلال والحيرة معنى آخر، ينصحون به من يأمن لسلامته، هو: عدم الاغترار بالسلامة؛ فإن الأحداث والآفات بالمرصاد، فقالوا: "كل ضب عنده مِرْدانُه". ويضرب هذا المثل لمن يغفل،

(١) عن: د. نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د. ت، ص ١٤٢.

(٢) أبو عبيد: كتاب الأمثال، ص١١١، والقالي: الأمالي، جـ١ص١٥٦ رقم ٤٤٠، والثعالبي: التمثيل والمحاضرة، ص٣٧٦، والميداني: مجمع الأمثال، ص٢٤٥ رقم ١٢٨٤، واليوسي: جـ٢ ص١٩٦، ١٩٧، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٢، ص ١٠٩٨ رقم ٤٨٣٣.

(٣) الأصمعي: كتاب الأمثال، ص٨٤.

(٤) أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ٢ ص١٠، ٣٣٥، ٣٣٦ رقم ١١٩٩، والبكري: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال: ص١٦٣، والقالي: أفعل من كذا، ٤٨، والميداني: مجمع الأمثال، ص ٤٣١ رقم ٢٢٥١، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص٧١١.

(٥) حمزة الأصبهاني: الدرة الفاخرة، جـ١ ص١٥٩، أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ١ ص٣٢٢ رقم ٦٤٠، والميداني: مجمع الأمثال، ص٢٣١ رقم ١٢١٢، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص٧١١، واليوسي: زهر الأكم، جـ٢ ص ١٤٨، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص١٧٤ رقم ٧١٧.

(٦) حمزة الأصبهاني: الدرة الفاخرة، جـ١ ص١٥٩، ١٦٠، وأبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ١ ص٣٢٢ رقم ٦٤١.

ويعرض نفسه للهلكة، فيقال له: إن الحوادث معرضة لكل أحد، والآفات معدَّة، وما من أحد إلا وعنده سبب هلاكه. والمرداة: الحجر الذي يُردَى به غيره، ويُرمَى به فيكسره، ويطلق هذا الاسم غالبًا على الحجر الثقيل. ومن وجد ضبًّا في أي مكان أمكنه أن يرميه بحجر فيرديه؛ لتوافر الحجارة حيث الضباب؛ ذلك أن الضب قليل الهداية سريع الضلال، فلا يتخذ جحره إلا عند حجر يكون علامة له؛ فمن قصده وجد الحجر الذي يرميه به متاحًا(١)

٧-الصبر على العطش، أو الصبر مطلقًا:

وفي هذا المعنى قالوا: "أروى من ضب"(٢) ، زاعمين أنه لا يرد الماء، إنما يستشف الريح(٣)

ويكون ذلك منه بالذات إذا أسنَّ، وعند الهرم وفناء الرطوبات ونقص الحرارات(٤). ولعل شأن الضب في هذا شأن كثير من كائنات الصحراء، لا يشرب الماء إلا نادرًا، أونادرًا جدًّا، مكتفيًا بما يكتسبه من عصارات ما يقتات عليه من نباتات، لكنه يشرب عند توافر الماء(٥)

(١) أبو عبيد: كتاب الأمثال، ص٣٣٥، أبو عبيد البكري: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال: ص١٦٣ ، وأبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ٢ ص١٣١، والآبي: نثر الدر، جـ١ص، ١١١، والثعالبي: التمثيل والمحاضرة، ص٣٧٧، والميداني: مجمع الأمثال، جـ٢ ص٦٢٦ رقم ٢٩٩٢، الزمخشري: المستقصى في أمثال العرب، جـ٢ ص٢٢٨، ٢٢٧، الواحدي: الوسيط في الأمثال، ١٤٥، ١٤٤، العبدري: تمثال الأمثال، ص ٥٢٤، ٥٢٣ رقم ٣٤٦ ، ابن منظور: لسان العرب، مادة(ردي) ، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٢، ص١٨٨٤ رقم ٧٥٣٤.

(٢) أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ١ ص ٤٠٥، ١٦٤، ٣٣٥ رقم ٨٩٨، و الميداني: مجمع الأمثال، ص٣١٩ رقم ١٦٩٨، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص ٢٥٨ رقم ١٢١٩.

(٣) القالي: أفعل من كذا، ص٦٩، والأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف، ص٥١٠ ، ويُقال إن الجمل يفعل هذا أحيانًا. ينظر: روبرت إيروين: الجمل. التاريخ الطبيعي والثقافي، ترجمة أحمد محمود، سلسلة الحيوانات، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة"مشروع كلمة"، ط١ ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م

(٤) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٥٦، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص٧٠٥.

(٥) ينظر: تركي المغامس وفوز الظاهر: مقال"وللناس في ما يعشقون. . . متعة أكل الضبان!، على الموقع الإلكتروني لجريدة الرأي الكويتية، يوم ٤ مارس ٢٠٠٨م.

وقالوا: "أصبر من ضب"[١] ، واستنبطوا من صبره على العطش، وبعده عن الماء في قلب الصحراء، وقلة وروده الماء مثلاً في الاستحالة ، فقالوا: "لا أفعل ذلك حتى يرد الضب"[٢]. ومثلٌ آخر قرنوا فيه الضب مع السمك– والسمك لا يغادر الماء مطلقًا، كما لا يغادر الضب قلب الصحراء–فقالوا عن الذي يجمع في كلامه بين المتباعدات التي لا يجوز الجمع بينها: فلان"جمع بين الضب والنون"[٣]. وفي حديث أنس–رضي الله عنه–: (إن الضب ليموت هزالاً في جحره بذنب ابن آدم) [٤] (١٩٤)، وابن الأثير يفسره بأن المطر يُحْبَسُ عنه بشؤم ذنوبهم، ويعلل تخصيص الضب بالذكر في هذا الحديث بأنه أطول الحيوان نَفْسًا وأصبره على الجوع[٥]

وللباحث في هذا رأي آخر، هو أن المثل ضُربَ بالضب هنا لنأيه عن مجتمعات البشر في أعماق الصحراء، حتى يُظَن به عدم تأثره بما يصنعون. وهنا تكتسب الصحراء معنى "الفضاء"، الذي يميز النقاد البيئيون بينه وبين "المكان"، ذاهبين إلى أن المكان حيز من إقليم معين، محدد بحدود طبيعية، بينما الفضاء ذو دلالة أشمل؛ إذ يعني ذلك المكان غير المعين، الذي تُنسَب إليه الذوات والمعاني والعلاقات[٦]

(١) أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ١ ص٤٨٣، ١٣٦ رقم ١١٥١، والميداني: مجمع الأمثال، ص٤٢١ رقم ٢١٩٥، و خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص٣٣٥ رقم ١٦١٢.

(٢) اليوسي: جـ٢ ص ٥٠، والميداني: مجمع الأمثال، ص٢١٥ رقم ١١٢٥، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص٧٠٣.

(٣) اليوسي: جـ٢ ص ٥٠، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص ٩٥٦ رقم ٤٣٦٥

(٤) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والخبر، جـ٣ ص ٧٠، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص ٧٠٤، وفيه" من ظلم بني آدم".

(٥) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والخبر، جـ٣ ص٧٠.

(6) Lawrence Buell, The Future of Environmental Criticism: Environmental Crisis and Literary Imagination ,Blackwell puplishing,Malden,USA,2005,P63.

٨- الصعوبة والتعقيد:

وانطلقوا من سمات جسدية في الضب إلى معان معنوية قرنوها بها، فقالوا في الصعوبة والتعقيد: "أعقدُ من ذَنَب الضب"(١). قالوا إن عقد ذنب الضب كثيرة، وزعموا أن بعض الحضريين كسا أعرابيّا ثوبًا، فقال الأعرابي لأكافئنك على هذا بشيء أعلمك إياه، فسأله: كم عقدة في ذنب الضب قال الحضري: لا أدري، فقال الأعرابي: فيه إحدى وعشرون عقدة(٢)

ههنا نجد الأعرابي دقيق الملاحظة، يعد عقد ذنب الضب عقدة عقدة، ويُفاخر بمعرفته هذه(٣)، والحضريُّ مهتم بمعرفة معلومة بسيطة عن الضب؛ لأنها من دقائق الحياة في البادية، وحياة البادية جزء أصيل من تكوينه الثقافي اللغوي ابتداءً، ثم الديني بالضرورة. فتكافئ معلومة عدد حلقات ذنب الضب ثوبًا في القيمة!في بدايات العصر العباسي، حين كان الأصمعي حيّا، في ذروة فترة جمع لغة العرب، وتنظيمها في مرحلة التدوين وإرساء قواعد العلوم اللغوية والدينية.

٩-حب أكل الضب دليل على العروبة الخالصة:

وجعل واحب أكل الضب دليل على العروبة الخالصة، فقالوا: "أطعم أخاك من عقنقل الضب؛ إنك إن تمنعه منه يغضب"(٤). وعقنقل الضب: "قانصته، وقيل: كشيته في بطنه، والكُشية: شحمة من أصل حلقه إلى أصل فخذه(٥)

(١) أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ٢ ص رقم ١٣٩٦ ، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص٧١٢، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص ٤١٦ رقم ١٩٧٠.

(٢) الميداني: مجمع الأمثال، جـ٢ ص٥٤٦، ٥٦٨ ، المثل رقم ٢٦٢٩، ورقم ٢٧٤٢ ، والدميري: حياة الحيوان الكبرى، جـ٢ ص٧١٢.

(٣) والطريف أنها معلومة دقيقة، تثبتها أحدث الأبحاث، التي انتهت إلى أن عقد الذنب في هذه العائلة من الزواحف يتراوح بين عشرين وأربع وعشرين، يُنظر:
Thomas M. Wilms and Wolfgang Böhme: p436.

(٤) الآبي: نثر الدر، جـ١ص١١١، والميداني: مجمع الأمثال، ص٤٣٧ رقم ٢٢٧١، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص٤٠٩ رقم ١٩٤٣.

(٥) خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص٣٦٦ رقم ١٧٦٥.

وقال قائلهم:

وأنت لو ذقت الكشى بالأكبا . . . لما تركت الضّب يعدو بالواد[١]

حتى أعداء الضب، اهتم العربي القديم بوصف صنيعهم معه، فها هو الظربان إذا أراد أن يأكل الضب أو أبناءه، اقتحم جحر الضب مستدبرًا، وحين يوقن أنه قد حال بين الضب والنسيم فسا عليه، فلا يجاوز ثلاث فسوات حتى يُغشى على الضب فيأكله[٢]

١٠-حدة السمع:

واعتقدوا في الضب حدة السمع، فقالوا: "أَسْمَعُ من ضب"[٣]

١١-القِصَر:

ولما وجدوا إصبع الضب قصيرةً ضربوا بها المثل في القصر، فقالوا: "أقصر من إبهام الضب"[٤] ، وقالوا: "أقصر من فتر الضب"[٥]

١٢-التأبيد:

ومن عدم سقوط أسنان صغير الضب أخذوا معنى التأبيد، فقالوا: "لا آتيك سن الحسل"[٦] ، و"لا أفعله سن الحسل"[٧] ، و"لا آتيك ورد

(١) الثعالبي: التمثيل والمحاضرة، ص٣٧٧.

(٢) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص٤٨، و الميداني: مجمع الأمثال، ص٥٦٩ رقم ٢٧٤٨ ، ص٥٨٠ رقم ٢٨٠٧، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٢، ص ١٦٥٨ رقم ٦٧٢٧.

(٣) الميداني: مجمع الأمثال، ص٣٦٠ رقم ١٩٠٥، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص٢٩٥ رقم ١٤٢٣.

(٤) أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ٢ ص١٠٩ رقم ١٥٥٠، والقالي: أفعل من كذا، ص٢٥ ، والميداني: مجمع الأمثال، ص٦٢٣ رقم ٢٩٦٩، و خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص٤٧٤ رقم ٢٢٠٢.

(٥) أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ٢ ص١٠٩ رقم ١٥٥٠، والميداني: مجمع الأمثال، ص٦٢٣ رقم ٢٩٦٩، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص٤٧٦ رقم ٢٢١٠.

(٦) ابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ٢ ص٧٧، وأبو عبيد: كتاب الأمثال، ص٣٨١، والبكري: فصل المقال، ص٥١٢، وأبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ١ ص٣٣٦ رقم ١٧٣٢ ، والقالي: الأمالي، جـ١ص٢٢٥ رقم ٧٥٩.

(٧) أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ٢ ص٣١٨ رقم ٢٢٥٨، والآبي: نثر الدر، جـ١ص١١١ والميداني: مجمع الأمثال، ص٧١٩ رقما ٣٥٥٦، ٣٥٥٧.

الحسل"[١]، و"والله لا أرعاها سن الحسل"[٢]. وقد يختصرون هذا كله إلى: "سن الحسل"[٣]. وقالوا أيضًا: "لا أرعاها حتى يحن الضب"[٤] ، أو: "لا أفعل كذا حتى يحن الضب في أثر الإبل الصادرة"[٥]

١٣-قلة المبالاة:

وفي هذا قيل: "ما أبالي أناء ضبك أم نضج"[٦] ، و"ما أبالي ما نضج من ضبك"[٧] ، و"ما أبالي ما نهئ من ضبك وما نضج"[٨]. يعني أن يكون لحم ضبك نيئًا لا ينشوي[٩]. وأحيانًا يكون بمعنى: أنت لم تُبرم الأمر ولم تتركه؛ لأنك متردد، ويروننه عندها هكذا: "ما نهئَ الضبُّ وما نضج"[١٠]

١٤-الحنكة والدهاء:

فمدحوا الرجل قائلين"إنه لضَبٌّ كَلَدَة، لا يُدْرَكُ حَفْرًا ولا يُؤخَذُ مُذَنَّبًا"[١١]

١٥-الحث على عدم تهييج الخصم:

فنصحوا قائلين: "إذا أخذتَ برأسِ الضب أغضبتَه"[١٢]

---

(١) أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال، جـ١ ص٣٣٦.

(٢) السابق، جـ١ ص٢٩١.

(٣) خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٢، ص١٣٢٦ رقم ٥٦٥٤.

(٤) البكري: فصل المقال، ص١٣٣.

(٥) القالي: الأمالي، ص٢٢٥، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٣، ص٢٠٥٤، رقم٨٢٣٥.

(٦) أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ٢ ص٢٣١ رقم ١٩٣٥.

(٧) السابق، جـ٢ ص٢١٢.

(٨) أبو عبيد: كتاب الأمثال، ص ٢٨٤، أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال جـ٢ ص٢٣١، ٢١٢ رقم ١٩٣٥، والآبي: نثر الدر، جـ١ص١١١، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٣، ص٢٢٩١ رقم ٩١٧٦.

(٩) الأصمعي: كتاب الأمثال، ص ١٣٧.

(١٠) خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٣، ص٢٢٩١ رقم ٩١٧٥.

(١١) الميداني: مجمع الأمثال، ص٦٨ رقم ٣١٢، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص٦٧٨ رقم ٣٢٣٥، وفي جـ١ص٦٧٧ رقم٣٢٣٤، "تلعة "بدل "كلدة".

(١٢) الآبي: نثر الدر، جـ١ص١١٢، و الميداني: مجمع الأمثال، ص٣٢، وفيه "بذنبةِ "بدل "برأس"، وهو كذلك عند خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص٢١٥ رقم ٩٤٦.

١٦-التشجيع على استبقاء المودة والإخاء:

وقالوا في هذا: "ضَببوا لصبيكم"[١]. والضبيبة: سَمنٌ ورُبّ، يُجعلان في العُكَّة ليطعَمَه الصبي. وهذا مثل يُضرب في إبقاء الإخاء وتربية المودة[٢]

١٧-وفي الضعيف يباري القوي:

قالوا: "سِلْقَةُ ضَبٍّ واعَمَتْ مَكونًا"[٣] ، والسلقة "الضبة التي ألقت بيضها، والمكون: التي جمعت بيضها في جوفها، والمواعمة: المفاخرة[٤]

١٨-وفي تناطح الأنداد وتلاقي الأكفاء:

قالوا: "إن تك ضبًّا فأنا حِسْلُه" في الرجل يلاقي مثله[٥]

١٩-الهيبة:

وقالوا فيمن يهابهم القريب والغريب: "ضِبَابُ أرضٍ حَرْشُها الأراقمُ"[٦] ، ومعناه: هم قوم ذوو هيبة، لا تحصل من مناوشتهم إلا على لدغات قاتلة.

٢٠-وفي السهولة، وجني المكاسب بأهون سعي:

زعموا أن ضبًّا ولج بين رجلي امرأة فضمت رجليها وأخذته، فقالوا: "كالمصطادة باستها"[٧]

٢١-لا تحسد فلانًا على ما رُزِق:

وقالوا في هذا: "لا تحسد الضب على ما في جُحره"[٨]

---

(١) الميداني: مجمع الأمثال، ص٤٢٧ رقم ٢٢٣١.

(٢) خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٢، ص ١٤٥٤، رقم ٦٠٥٤.

(٣) الميداني: مجمع الأمثال، ص٣٥٠ رقم ١٨٦٢، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٢، ص١٣١٩ رقم ٥٦٣١.

(٤) الميداني: مجمع الأمثال ، ص٣٥٠ رقم ١٨٦٢.

(٥) السابق، ص٣٢، والآبي: نثر الدر، جـ١ص١١١، والثعالبي: التمثيل والمحاضرة، ص٣٧٧، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص٥٧٣ رقم ٢٧١١.

(٦) الميداني: مجمع الأمثال، ص ٧٢٤ رقم ٢٢٣٣، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٢، ص ١٤٥٤ ، رقم ٦٠٥٣.

(٧) الميداني: مجمع الأمثال، ص٦٥١ رقم ٣١١٤، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٢، ص١٩١٦ رقم ٧٦٦٧.

(٨) خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٣، ص١٩٦٦ رقم ٧٨٨٧.

٢٢-إمكان الفرصة:

وفيه قيل: "تطلبُ ضبًّا وهذا ضبٌّ بادٍ رأسُه؟"(١)

٢٣- وفيمن ينزل ضيفًا على رجل غني يتقلب في النعيم:

قالوا: "نزلَ بوادٍ ضَبُّه مَكونٌ"(٢)

٢٤-الضيق:

وقالوا في وصف الضيق: "أضيق من مَبْعَج الضب"(٣)

٢٥-الاضطرار:

وقالوا فيمن يُضطر إلى أمرٍ ما اضطرارًا: "لو تُرِك القطا لنام"، قالوا: "لو تُرِك الضبُّ بأعداء الوادي"(٤)

٢٦-الحزن العميق:

وعبروا عن الحزن العميق الذي لا سبيل إلى القدرة عليه، فقالوا: "ضَبَّةُ حُزْنٍ في حوامي قَلَع"(٥)

والحوامي: النواحي والأطراف، والقَلَع: الصخرة العظيمة، والضبة إذا كانت في مثل هذا المكان لا يقدر أحد على صيدها(٦). ولا شك في أن ستة وعشرين دورًا للضب، وستة وعشرين معنى عبرت به العرب عنها، لا شك في أن هذا كثير ودال. . والله المستعان

(١) الميداني: مجمع الأمثال، ص١٣٩ رقم ٦٧٥، و خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص٨٦٧ رقم ٣٩٧٧.

(٢) الميداني: مجمع الأمثال، ص٢٠٦ رقم ١٠٦٣، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٢، ص١٠٢٨ رقم ٤٦١٠.

(٣) الميداني: مجمع الأمثال، ص٤٣٢ رقم ٢٢٥٥ ، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ١ص٣٦٣ رقم ١٧٤٩.

(٤) الميداني: مجمع الأمثال، ص٦٨٧ رقم ٣٣٤٧، وخير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٣، ص٢١٤٣ رقم ٨٦٠٢.

(٥) الميداني: مجمع الأمثال، ص ٤٢٨ رقم ٢٢٣٨.

(٦) خير الدين شمسي باشا: معجم الأمثال العربية، جـ٢ص١٤٥٥ رقم ٦٠٥٦ .

خاتمة البحث ونتائجه

كان هذا البحث عن الضب في مجال النقد البيئي، انتظمت حباته في ثلاثة مباحث، سبقتها مقدمة، وتلتها ختمة البحث وقائمة بأهم مصادره ومراجعه. عرضت المقدمة مشكلة البحث وقضيته، ومنهجه، وحدوده، وتساؤلاته، والدراسات السابقة. وجاء المبحث الأول عن تجريد المصطلح، والثاني عن الوظائف الفنية للضب في السرد والشعر والبلاغة، وتحديدًا: الضب والتأطير الحكائي، ورمزية الضب(مسخه، وقوته، وعقوق الضب وأكله أبناءه)، والضب في شعر المدح وشعر الهجاء، وفي التشبيه والكناية. أما المبحث الثالث ففي صور الضب وأدواره ونطاقات فعله الثقافي.

ولم يكن البحث الراهن عن الجمل مثلاً، وإنما عن مفردة بيئية أقل حجمًا بكثير، هي الضب؛ جنوحًا عن التعميمات الغائمة، وطموحًا إلى نتائج أكثر دقة. وكان مما انتهى إليه منها:

١-الضب مفردة بيئية مهمة في التراث العربي بوجه عام، وفي الأمثال منه بوجه خاص، وآية ذلك أن الباحث وجد عنه ستين مثلاً في كتب الأمثال العربية القديمة، وهو عدد كبير، يدل على مكانة-لم تكن متوقعة-لذلك الكائن، في التراث الأدبي العربي عامة، وفي الأمثال العربية التراثية خاصة.

٢-لم يقف العربي القديم عند ظاهرة الضب، وإنما حاول فهم ما يعتري ذلك الكائن من مشاعر الحب، أو الحقد، أو الحذر، أو الخوف، وما له من حيلة، وعبر بالضب عن ستة وعشرين معنى مهمًّا!

٣-أما بالنظر إلى الفنون الأدبية، فللمثل النثري القدح المعلَّى والنصيب الأوفى من هذا، ثم يأتي الرجز، فسائر أضرب الشعر. ومن حيث الصياغة والتشكيل الفني، وان التشبيه الأكثر حضورًا، ثم الكناية.

٤-استغل بعض القصَّاص غرائبية الضب في ترويج بضاعتهم، متخذين منه ومما يتصل به إطارًا حكائيًّا، وكانت لهم محاولات قصصية لجمع عدد من الأمثال الدائرة حول الضب معًا، لكنها لم تعدُ البنية القصصية القصيرة البسيطة، بما يدل على أن القصة لم تكن الغاية والهدف، وإنما كانت مجرد قالب للأمثال، الغرض منه أن يربطها في سياق واحد.

٥-من الشعر ما يدخل في نطاق الإبداع المتكئ على الضب موضوعًا، أو معادلاً موضوعيًّا، ووسيلة لنقل المعنى المراد. والملاحظ أن هذا كان في غرضي المدح والهجاء بالذات، وهما-عند العرب القدماء-عمود الشعر وجوهره، وأهم أغراضه؛ لأن بهما يكون الرفع والخفض للمكانة الاجتماعية، وبهما نفع الوليّ وضرّ العدو. وملاحظة أخرى، هي ولع كُثيِّر بن عبد الرحمن(كثير عزَّة) بتوظيف الضب في مدحه؛ لأنه شاعر عبد الملك بن مروان أشهر الخلفاء الأمويين. وكانت الدولة الأموية دولة عربية تتشبث بكل ما يمت للهوية العربية الخالصة بصلة.

٦-نحن إزاء عدد من زوايا الرؤية لازاوية واحدة: تعددت تلك الرؤى بتعدد مرجعيات أصحابها، وقدراتهم على الرصد والتحليل والاستنباط؛ فجاءت بعضها سطحية، لا تراوح ظاهر الضب وهيئته وما يبدو غريبًا من طباعه، وتعمق بعضها دراسة الأمور، وربط بعضها ببعض، وجنح فريق ثالث إلى الأسطورة لتفسير الأمور، على عادة الشعوب القديمة. لكن صياغة نهائية على أيدي الرواة ومؤلفي كتب الأدب ومعاجم اللغة، أطَّرت هذا كله في سياقات محددة، شكلت صورة كلية للضب، ذات ملامح محددة، لم تتطور بعدها كثيرًا؛ لخروج الضب من بؤرة الاهتمام الثقافي والأدبي، وإن ظل حاضرًا على هيئة أيقونة ثقافية، ومادة تحت الطلب.

٧-في العصر الحالي، عاد الضب إلى صحرائه لينزوي فيها ثقافيًّا وماديًّا، ولم تعد له المكانة الثقافية التي كانت له، لكنه-على عكس المتوقع-لم يغب عن ثقافة أبناء الجزيرة العربية وأدبهم، ومخيلتهم الجمعية.

أما عن التوصيات، فعلى رأسها:

١-وجوب الاهتمام بالنقد البيئي، ذلك الفرع الحديث الواعد من مجالات النقد الأدبي/الثقافي، واستثمار أدواته في استكشاف نطاقات جديدة من ثقافتنا الثرة.

٢-علينا صقل أدوات النقد البيئي المتاحة بتوطينها في بيئتنا الثقافية العربية، عبر تطبيقات مستفيضة على نصوص أدبية عربية خالصة، لاسيما في نطاقين: الأمثال العربية القديمة، والروايات العربية المعاصرة؛ طموحًا إلى"أجرومية" بحثية بيئية عربية شاملة، لا تجنح إلى القديم على حساب المعاصر ولا العكس.

٣-تنبغي دراسة مفردةٍ مفردة من مكونات البيئة العربية، وتتبع تجلياتها في الثقافة العربية الإسلامية كلها، وبهذا يتوفر ما يسمَّى"التأهيل الضروري للمرجع"، ويُتاح-بعدها-بناء دراسات علمية أشد دقة وأكثر إحكامًا، على أساس من تلك الدراسات الأولية.

قائمة بأهم المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية

الآبي(أبو سعد منصور بن الحسين)(ت٤٢١هـ):

١-نثر الدر، اختار النصوص وقدم لها وعلق عليها مظهر الحجيّ، سلسلة المختار من التراث العربي(٧١)، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٩٧م.

الأبشيهي(شهاب الدين محمد بن أحمد)(ت٨٥٠هـ):

٢-المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق محمد خير طعمة الحلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٥ ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

ابن الأثير(مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري)(ت ٦٠٦هـ):

٣-النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، الناشر المكتبة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ، د.ت.

الأزهري(أبو منصور محمد بن أحمد)(ت٣٧٠هـ):

٤-تهذيب اللغة، تحقيق إبراهيم الإبياري، سلسلة تراثنا، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م.

الأصمعي(عبد الملك بن قريب)(ت٢١٦هـ):

٥-كتاب الأمثال، تحقيق ناصر توفيق الجباعي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق-سوريا، ٢٠١٠م.

البخاري(أبو عبد الله محمد بن إسماعيل)(ت٢٥٦هـ):

٦-صحيح البخاري، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر، الرياض، السعودية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

البكريّ(أبو عبيد):

٧-فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق د. عبد المجيد عابدين، ود. إحسان عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٣ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

حمزة الأصبهاني(أبو عبد الله حمزة بن الحسن)(ت٣٥١هـ):

٨-الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، تحقيق عبد المجيد قطامش، سلسلة ذخائر العرب(٤٦)، دار المعارف بمصر، د. ت.

الجاحظ(أبو عثمان عمرو بن بحر)(ت٢٥٥هـ):

٩-الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م.

الجرجاني(القاضي علي بن عبد العزيز):

١٠-الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

خير الدين شمسي باشا:

١١-معجم الأمثال العربية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، السعودية، ط٢ ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

د. درّ محمد:

١٢-أهم مناهج وعينات وأدوات البحث العلمي، مجلة الحكمة للدراسات التربوية والنفسية، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، العدد التاسع، يناير ٢٠١٧م

الدميري(كمال الدين محمد بن موسى)(ت ٨٠٨هـ):

١٣-حياة الحيوان الكبرى، حياة الحيوان الكبرى، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ط١ ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

أبو داود(سليمان بن الأشعث السجستاني)(ت ٢٧٥هـ):

١٤-سنن أبي داود، ضبط صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١ ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م

رؤبة بن العجَّاج:

١٥-ديوانه، ضمن مجموع أشعار العرب، تصحيح وليم بن الورد البروسي ، دار ابن قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، د. ت.

الزمخشري(أبو القاسم جار الله محمود بن عمر)(ت٥٣٨هـ):

١٦-المستقصى في أمثال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢ ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

د. شوقي ضيف:

١٧-العصر الجاهلي، سلسلة تاريخ الأدب العربي(١)، دار المعارف، القاهرة، ط٢٤ ٢٠٠٣م.

العبدري(أبو المحاسن محمد بن علي العبدري الشيبي(ت ٨٣٧هـ):

١٨-تمثال الأمثال، حققه أسعد ذبيان، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ط١ ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

د. عبد الحميد الشلقاني:

١٩-رواية اللغة، دار المعارف بمصر، د. ت

د. عبد الرحمن بن إسماعيل السماعيل(محرر):

٢٠-الغذامي الناقد. قراءات في مشروع الغذامي النقدي، سلسلة كتاب الرياض(٩٧/ ٩٨)، مؤسسة اليمامة الصحفية، ١٤٢٢هـ.

عبد الرحمن منيف:

٢١-مدن الملح جـ١ (التيه)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١١ ٢٠٠٥م.

د. عبد الغفار مكاوي:

٢٢-جذور الاستبداد. قراءة في أدب قديم، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر ١٩٩٤م.

ابن عبدربه(أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي)(ت٣٢٨هـ):

٢٣-العقد الفريد، د. عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

أبو عبيد القاسم بن سلَّام(ت٢٢٤هـ):

٢٤-كتاب الأمثال، تحقيق د. عبد المجيد قطامش، سلسلة من التراث الإسلامي، الكتاب التاسع، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة-دار المأمون للتراث، دمشق، سوريا، ط١ ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

ابن العربي(أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله المالكي)(ت٥٤٣هـ):

٢٥-عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، وضع حواشيه الشيخ جمال مرعشلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

ابن عساكر(أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي)(ت٥٧١هـ):

٢٦-تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ.

العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل)(ت٣٩٥هـ):

٢٧-جمهرة الأمثال، دار الكتب العلمية، ضبطه د. أحمد عبد السلام، وخرج أحاديثه أبو هاجر محمد بن سعيد بن بسيوني زغلول، بيروت، ط١ ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

العمري(شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله)(ت٧٤٩هـ):

٢٨-مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ ٢٠١٠م.

القالي(أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون)(ت٣٥٦هـ):
٢٩-أفعل من كذا، تحقيق د. علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط١ ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
٣٠-كتاب الأمالي، تحقيق صلاح بن فتحي هلل وسيد بن عباس الجليمي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.
ابن قتيبة الدينوري(أبو عبد الله محمد بن مسلم)(ت٢٧٦هـ):
٣١-عيون الأخبار، تحقيق منذر محمد سعيد أبو شعر، المكتب الإسلامي، بيروت-لبنان، وعمَّان-الأردن، ط١ ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
٣٢-كتاب المعاني الكبير، ضبطه د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط١ ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
القزويني(زكريا بن محمد بن محمود الكوفي)(ت٦٨٢هـ):
٣٣-عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط١ ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
ابن كثير(الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي)(ت٧٧٤هـ)
٣٤-البداية والنهاية، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ط١ ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
مؤرج السدوسي(أبو فيد مؤرج بن عمرو السدوسي)(ت١٩٥هـ):
٣٥-كتاب الأمثال، تحقيق د. رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط١ ١٩٨٣م.
ابن ماجة(أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني)(ت٢٧٣هـ):
٣٦-سنن ابن ماجة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط١ ، د. ت.

مسلم(أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري)(ت٢٦١هـ):

٣٧-صحيح مسلم، اعتنى به صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

المفضل بن سلمة(أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم)(ت٢٩٠هـ):

٣٨-الفاخر، تحقيق عبد العليم الطحاوي، سلسلة التراث للجميع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م.

ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري)(ت٧١١هـ):

٣٩-لسان العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٤م.

الميداني(أبو الفداء أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم)(ت٥١٨هـ):

٤٠-مجمع الأمثال وأيام العرب في الجاهلية والإسلام ونبذ من كلام سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين، تدقيق أحمد علي حسن وآخران، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢ ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

د. نبيلة إبراهيم:

٤١-أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د. ت.

نجاح الجبيلي(مُعد ومُترجم):

٤٢-النقد البيئي. مقدمات. مقاربات. تطبيقات، دار شهريار، البصرة، العراق، ط١ ٢٠٢١م

النديم(أبو الفرج محمد بن إسحق)(ت٣٨٠هـ):

٤٣-كتاب الفهرست، قابله على أصوله، وعلق عليه، وقدم له أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

هدبة بن الخشرم:

٤٤-شعر هُدبة بن الخشرم العذريّ، د. يحيى الجبوري، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط٣ ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

الواحدي(أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد)(ت٤٦٨هـ): (الكتاب منسوب إليه، وهو لمحمد ابن علي العراقي، المتوفى عام٥٦١هـ):

٤٥-الوسيط في الأمثال، تحقيق د. عفيف محمد عبد الرحمن، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

اليوسي(الحسن)(ق١١هـ):

٤٦-زهر الأكم في الأمثال والحكم، تحقيق د. محمد حجي، ود. محمد الأخضر، منشورات معهد الأبحاث والدراسات للتعريب، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط١ ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

ثانيًا: المصادر والمراجع المعربة

إدوارد سعيد:

٤٧-المثقف والسلطة، ترجمة د. محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١ ٢٠٠٦م.

بيتر هولاند:

٤٨-المملكة الحيوانية. مقدمة قصيرة جدًّا، ترجمة د. منير علي الجنزوري، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط١ ٢٠١٦م.

ديفيد نورمان:

٤٩-الديناصورات. مقدمة قصيرة جدًّا، ترجمة زينب عاطف، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط١ ٢٠١٦م.

روبرت إيروين:

٥٠-الجمل. التاريخ الطبيعي والثقافي، ترجمة أحمد محمود، سلسلة الحيوانات، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة"مشروع كلمة"، ط١ ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

رودلف زلهايم:

٥١-الأمثال العربية القديمة. مع اعتناء خاص بكتاب الأمثال لأبي عبيد، ترجمةد. رمضان عبد التواب، دار الأمانة ومكتبة الرسالة، ط١ ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

والتر ج. أونج:

٥٢-الشفاهية والكتابية، ترجمة د. حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة ١٨٢، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت، شعبان ١٤١٤هـ- فبراير ١٩٩٤م.

ثالثًا: البحوث والدوريات والموسوعات

د. إيمان مطر السلطاني وآخَرَان:

٥٣-"نسق النسوية البيئية في رواية حديقة حياة للطفية الدليمي"، بحث بمجلة التربية الأساسية والعلوم الاجتماعية، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة، العراق، المجلد السادس، يناير ٢٠١٩م

رابعًا: المصادر والمراجع الأجنبية

54-Cheryll Glotfelty and Harold Fromm (editors) , The Ecocritisism Reader : Landmarks in Literary Ecology , The university of Georgia press 1996.

55-John H. Hayes: An Introduction to Old Testament Study,

SCM Press LTD, U. S. A, 1979

56-Lawrence Buell, The Future of Environmental Criticism: Environmental Crisis and Literary Imagination,Blackwell puplishing,Malden,USA,2005

57-W. G. E . Watson, Classical Hebrew Poetry, JSOT Press, 1984.

خامسًا: مواقع الشبكة الدولية للمعلومات(إنترنت)

٥٨-تركي المغامس وفوز الظاهر: مقال"وللناس في ما يعشقون. . . متعة أكل الضبان!، على الموقع الإلكتروني لجريدة الرأي الكويتية، يوم ٤ مارس ٢٠٠٨م.

٥٩-توماس ويلمز وفولفجانج بومه Thomas M. Wilms and Wolfgang Böhme:

Review of the taxonomy of thespiny-tailed lizards of مقال
Arabia(Reptilia: Agamidae: Leiolepidinae: *Uromastyx*)
في:
FAUNA OF ARABIA 23: 435–468 Date of publication: 15. 07. 2007

٦٠-جون ريفيرتي John P. Rafferty : مقال عن الضب بدائرة المعارف البريطانية، في
https: //www. britannica. com/animal/spiny-tailed-lizard

٦١-مقال عن الورل nile-monitor على موقع أنيماليا
http: //animalia. bio/nile-monitor

٦٢-مقال عن قتل الحيوانات أبنائها أحيانًا:
Why do animals sometimes kill thrir babies?
NationalGeografic. com,published March 28,2014

تاسعاً :
اللغويات